3 me Année, No. 109.

Lundi-5-8-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٠٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ٥ أغسطس سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

أساليب الاستعمار

قضـــية الحبشة

قضية الشرق وقضية الحرية

للاستعمار الغربى تاريخ أسود ، حافل بصنوف الاعتداءات الدموية على حقوق الأمم الضعيفة ، وعلى أرواح الشعوب الآمنة وحرياتها وأرزاقها ؛ ولـكن هـذا الاستعمار الدموى الغادر ، لم يبلغ فى عصر من العصور ، ولا فى ظرف من الظروف ، ما يبلغه اليوم من الجرأة والاستهتار ، بل من الاجرام والتوحش ، فهو لا يحاول حتى أن يستر نياته كما عهدناه فى المـاضى أو يسبغ على تصرفه أى لون مشروع أو معقول ، بل يتقدم بكل بساطة ، مسفراً عن براثنه ، شاهراً سلاحه للقضاء على الفريسة ، متغنياً فى غير حياء ولا وجل بما يستطيع أن يغنم من وراء الدم المسفوك ، والحريات المغصوبة ، والبلد المباح

تلك هى الصورة التى يعرضها لنا النزاع الايطالى الحبشى . ونقول النزاع من باب التجاوز ، إذ أى نزاع هنـالك ؟ بلد حر

مستقل منذ أحقاب التاريخ ، وشعب آمن مطمئن فى أرضه التى خصه الله بها ، يريد الاستعمار الفاشستى الغاشم أن يلتهمه نهاراً جهاراً ؛ ولا عذر له — إن صح التعبير — إلا أنه يريد أن يزيد فى أرضه وفى ثرواته وفى سلطانه ، وأن يحقق شهوة عرضت له فى استباحة الهضاب الحبشية الغنية بكنوز الطبيعة ، التى يضطرم جشعاً للحصول عليها . وأى طريق هذا الذى يلجأ إليه لتحقيق هذه الشهوة الوضيعة الغاشمة ؟ هو القتل المنظم يسميه الحرب ، والفتك الذريع يسميه الفتح ؛ هو القرصنة المجردة ، وهو السلب الجهر ، وهو قطع الطريق ؛ وهو أخيراً كل ما فى الجريمة من عدوان وانتهاك وكل ذلك باسم المدنية الغربية والتهذيب الأوربى

وأوربا المتمدينة ، ما هو موقفها من ذلك العدوان الآثم ؟ وشرائع الله وشرائع الأمم ما مصيرها ؟ أما أوربا المتمدينة فهى تأتمر جمعاء مع هذه الفاشستية الدموية المتوحشة ؛ وإذا شذت دولة فعرضت بعدوانها فإنما ذلك لغيرة أو منافسة ؛ وإنما عصابة الاستعمار كلها يد واحدة تؤيد إيطاليا القوية الزاخرة بالجند والسلاح ، لا باعتبارها دولة أوربية وقوة استعمارية فقط ، ولكن باعتبارها دولة غربية تزمع أن تفترس أمة شرقية ، وأمة بيضاء تزمع أن تفترس شعباً أسمر « ملوناً » ؛ وكلها تأتمر مع القوى المعتدى ضد الضعيف المعتدى عليه ، فتمتنع عن بيع السلاح للحبشة مصانعة لإيطاليا ومؤازرة لقضية الاستعمار المشتركة ، لكى تعجز الحبشة عن الدفاع عن نفسها ، ولكى يستطيع المعتدى أن يحصد أبناءها المدافعين عنها بأيسر أمر

وأما شرائع الله وشرائع الأمم ، فإن هـذا الاستعمار الباغى ينتهكها شر انتهاك ؛ بل إنه ليتيه كبرياء إذ يستطيع انتهاكها دون وازع ، ويزعم أنه يستطيع بما لديه من القوى والعدد أن يسخر من رأى العالم ومن الانسانية كلها ؛ فحقوق الأمم وحرياتها المقدسة ، وأمن الشعوب وحياة الأمم والأفراد كلها لغو فى نظره ؛ ثم هو يطأ قانون الأمم (القانون الدولى) بقدميه ويسحقه سحقاً ، فلا ترده عن مشروعه الآثم معاهدات سلم وتحكيم يرتبط بها ، ولا يحترم معاهدات خاصة عقدها مع الأمة التى ينوى افتراسها يوم كان يخطب ودها

تلك هى إيطاليا الفاشستية ، وذلك هو موقفها كما يعرضه ذلك الرجل ! ذلك الطاغية الذى يزعم أنه بعدوانه الصارخ على حرية الأمم ، يقود أمته فى سبيل المجد والعظمة والثراء ، وما يقودها إلا فى سبيل الدمار والفناء

لقد كانت إيطاليا لأقل من قرن أمة ذليلة تصفدها أغلال الحكم الأجنبى ، وكانت أوربا والعالم كله يعجب بكفاحها فى سبيل حرياتها ؛ وما زالت أسماء أولئك الزعماء الذين قادوها فى سبيل الحرية أمثال مازينى وأورسينى وكافور وجاريبالدى تستثير اعجاب الخلف وتقديره . ولكن إيطاليا ، ولكن ذلك الطاغية الذى يسيطر على مصايرها اليوم ، يوشك أن يقضى بمعوله المخرب على ذلك الصرح النبيل الذى ما زالت تتخذه الأمم الطامحة إلى حرياتها مثلا أعلى

إن هذا النزاع الذى تهتز له اليوم ارجاء العالم كله ، ليس قضية إيطاليا والحبشة بل هو أجل شأناً من ذلك وأبعد مدى ؛ هو قضية الغرب الظافر والشرق المغلوب ، وهو قضية الاستعباد والحرية ؛ وإذا كانت قوى الاستعمار تتضافر اليوم مع إيطاليا لتزيدها جرأة على جرأتها ، وقوة على قوتها ، فذلك لأنها ترى فى سحق الحبشة سحق آخر معقل للحرية الافريقية ؛ وإذا كانت بعض الدول الاستعمارية تحاول أن تبذل باسم عصبة الأمم جهوداً لاتقاء الحرب الافريقية ، فليس ذلك حباً منها للسلام أو عطفاً على الحبشة ، ولكن لأنها تشفق أن يثير هذا الفصل الجديد فى الصراع بين الشرق والغرب ، وبين الاستعمار وفرائسه ، اضطراباً فى أملاكها ومستعمراتها ، وأن يذكى فى الأمم المستعبدة روح الانتقاص والثورة فتعمل على تقويض سلطانها المغصوب

إن فرصة تلوح فى الأفق للأمم الشرقية ، فهل تعنى الأمم الشرقية بمراقبة الحوادث ، وهل تعد نفسها لانتهاز فرصتها ؟

(. . .)

كلمات عن حافظ

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ذهبتُ بقلبي إلى كل مكان فوجدت أمكِنةَ الأشياء ولم أجدْ مكانَ قلبي ؛ أيُّها القلبُ المسكينُ أين أذهب بك ؟

هذا ما أجبتُ به (حافظ) حين سألني مرةً : ما لك لا ترضى ولا تهدأ ولا تستقرّ ؟ وكان يُخيَّل إليّ أنه هو راضٍ مستقر هادئ ، كأنما قضى من الحياة نَهْمَتَه ولم يبق في نفسه ما تقول نفسُه ليت ذلك لي . وكنت أعجبُ لهذا الخُلُق فيه ولا أدري ما تعليله إلا أن يكونَ قد خُلق مطبوعاً بطابَع اليُتْم فلم يعرف منذ أدرك ألا أنه ابنُ القَدَر ؛ تأتيه الأفراحُ والأحزانُ من يدٍ واحدة مقبَّلة كما تنالُ الصبيَّ ألطافُ أبيه ولَطَمَاتُ أبيه . . . .

وقد قلتُ له مرة : كأنك يا حافظ تنام بلا أحلام ؛ فضحك وقال . أو كأنني أحلم بغير نوم . . . .

ولقد عرفته منذ سنة ١٩٠٠ إلى أن لحق بربه في سنة ١٩٣٢ فما كنتُ أراه على كل أحواله إلا كاليتيم محكوماً بروح القبر ، وفي القبر أولهُ . ولما أزْمَعَ السفرَ إلى اليونان قلتُ له : ألا تخشى أن تموت هناك فتموت يونانياً . . . . فقال : أو تراني لم أمتْ بعد في مصر . . . ؟ إن الذي بقي هيِّن

* * *

ومن عجائب هذا اليتيم الحزين أنه كان قويَّ الملَكة في فن الضحك ، كأن القَدَر عوَّضه به ليُوجِدَهُ في الناس عطفَ الآباء ومحبةَ الاخوة . ولم يَخْلُ مع فقره من ذريعة قوية إلى الجاه ، ووسيلة مؤكدة إلى ما هو خيرٌ من الغنى ؛ فكانت أسبابُه إلى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ثم حشمت باشا ، ثم سعد باشا زغلول ؛ وهذا نظامٌ عجيبٌ في زمن (حافظ) يقابل الاختلالَ العجيبَ في نفس حافظ ؛ فالرجلُ كالسفينة المتكَفِّئة تميلُ بها موجةٌ وتَسْنِدها موجة ، وهي بهذه وبهذه تمرُّ وتسير

وأولئك الرؤساءُ العظماءُ الذين جعلهم القَدَر نظاماً في زمن حافظ كانوا من أفقر الناس إلى الفكاهة والنادرة ، فكان لهم كالثروة في هذا الباب ، ووقع إصلاحاً في عيشهم وكانوا إصلاحاً في عيشه ؛ ولو أن الأقدارَ تُشَبَّهُ بالمدارس المختلفة لقلنا إن (حافظ) تخرَّج منها في مدرسة التجارة العليا . . . . فهو كان أبرعَ من يتاجر بالنادرة

* * *

وهذه النوادر كأنها هي أيضاً صنعت (حافظ) في شكل نادرة . فكان فقيراً ، ومع هذا كان للمال عنده مُتَمِّم هو إنفاقُه وإخراجُه من يده ؛ وكان يتيماً ، ولكنه دائماً متودِّد ؛ وكان حزيناً ، ولكنه أنيسُ الطَّلْعة ؛ وكان بائساً ، ولكنه سليمُ الصدر ، وكان في ضيق ، ولكنه واسعُ الخُلُق ؛ وتمامُ النادرة فيه أنه كان طوالَ عمره مُتَبَسِّطاً مهتزاً كأن له زمناً وحدَه غير زمن الناس ، فتتراكم عليه الهموم وهو مُسْتَنِيمٌ إلى الراحة ، ويعتريه من الجوع مثلُ مَكْسَلة الشِّبَع ، ويَتَرسَّلُ إلى البَطَالة وكأنه مُشَمِّرٌ للجد ، ويتمكنُ الحزنُ منه في ساعة فيَتَهدَّد حزنه بالساعة التالية . . . .

رأيته في أحد أيام بؤسه الأولى قبل أن يتصل عيشُه وكان يَعُدُّ قروشاً في يده فقلت : ما أمر هذه القروش ؟

قال : كنت أقامرُ الساعة فأضعت ثلاثين قرشاً ولم يبق لي غير هذه القروش الملعونة ، فهلمَّ نتعش . ودخل إلى مطعم كان وراء حديقة الأزبكية فزعمت له أني تعشيت . . . فأكل هو ودفع ثمن طعامه ثلاثة قروش . وكنت أطالعُ في وجهه وهو يأكل ، فما أتذكره الآن إلا كما طالعتُه بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ حين دعاني (حافظ) إلى مطعم بار اللواء وقد فاضت أنامله ذهباً وفضة . وكان رحمه الله قد أصدر الجزء الثاني من (البؤساء) ورآني في القاهرة فأمسك بي حتى قرأتُ معه الكتابَ كلَّه فيما بين الظهر والمغرب ؛ وركبنا في الأصيل عربة وخرجنا نتنزَّه أي خرجنا نقرأ . . .

* * *

وكان على وجه (حافظ) لونٌ من الرضي لا يتغير في بؤس

(١) لما توفى حافظ رحمه الله كتبنا فصلا طويلا عن أدبه للمقتطف . فلم نعرض في كلماتنا هذه لشيء من أدب الرجل وانما هي ذكرى وبقايا من الأيام

ولا نعيم كبياض الأبيض وسواد الأسود . وهذا من عجائب الرجل الذى كان فى ذات نفسه فناً من الفوضى الانسانية حتى لكأنه حلم شعرى بدأ من أبويه ثم انقطع وترك لتتممه الطبيعة !

ومن نظر إلى (حافظ) على اعتبار أنه فن من الفوضى الانسانية رآه جيلاً جمال الأشياء الطبيعية لا جمال الناس ؛ ففيه من الصحراء والجبال والصخور والغياض والرياض والبرق والرعد وأشباهها . وكنت أنا أراه بهذه العين فأستجمله ، ويبدو لى جزلاً مُطهَّماً ، وأرى فى شكله هندسة كهندسة الكون تتم محاسنها بقبائحها . وكم قلت له : إنك يا حافظ أجمل من القفر ......

أما هو فكان يرى نفسه دَمِياً شنيع المرآة متفاوت الخلق كأنه إنسان مغلوط فى تركيبه ...

وقد سألته مرة : هل أحب ؟

فقال : النساء اثنتان : فاما جميلة تنفر من قبحى ، وإما دميمة أنفر من قبحها ؛ ولهذا لم يفلح فى الغزل والنسيب ، ولم يحسن من هذا الباب شيئاً يسمى شيئاً ؛ وبقى شاعراً غير تام ، فان المرأة للشاعر كحواء لآدم ، هى وحدها التى تعطيه بحبها عالماً جديداً لم يكن فيه . وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلاً . . .

* * *

وتهدم حافظ فى أواخر أيامه من أثر المرض والشيخوخة ، وكان آخر العهد به أن جاء إلى إدارة (المقتطف) وأنا هناك فلم يرنى حتى بادرنى بقوله : ماذا ترى فى هذا البيت فى وصف الأمريكان :

وتخذتم موج الأثير بريداً
حين خلتم أن البروق كسالى [(١)]

فنظرت إلى وجهه المروق المتغضن وقلت له : لو كان فيك موضع قُبلة لقبلتك لهذا البيت ؛ فضحك وأدار لى خده ؛ ولكن بقى خده بلا تقبيل . . .

* * *

وشهرة هذا الأديب المظلم بنوادره ، ومحفوظاته من هذا الفن أمر مجمع عليه ؛ وكان يتقصص النوادر والفكاهات ومطارحات السمر من مظانها فى الكتب ورجال الأدب وأهل المجون ، فاذا قصها على من يجالسه زاد فى أسلوبها أسلوبه هو ، وجعل يقلبها ويتصرف فيها ويبين عنها أحسن الابانة عنطقه ووجهه ونبرات فى لسانه ونبرات فى يده

وهو أسمى هذا الباب خاصة ، يروى منه رواية عريضة ؛ فاذا استهل سح بالنوادر سحاً كأنها قواف قصيدة تدعو الواحدة منها أختها التى بعدها

وقد أذكرنى (القوافى) مجلساً حضرته قديماً فى سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠ وكان (مصباح الشرق) قد نشر قصيدة رائية لابن الرومى ، فتعجب المرحوم الشيخ محمد المهدى من بسطة ابن الرومى فى قوافيه ، فقال له (حافظ) هلم نتساجل فى هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا . وكانت القافية من وزن : قدرها ، أحمرها ، أخضرها الخ ، وجلست أنا أحصى عليهما ؛ فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدى يفكر طويلاً ثم ينطق باللفظ ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ على البديهة ، فيعود الرجل إلى الاطراق والتفكير ؛ ثم انقطع أخيراً وبقى حافظ يسردُ له من حفظه الغريب

أما فى النوادر فالعجيبة التى اتفقت له فى هذا الباب أنه جاء إلى طنطا فى سنة ١٩١٢ ومديرها يومئذ المرحوم « محمد محب باشا » وكان داهية ذكياً وظريفاً لبقاً ، وكنت أخالطه وأتصل به ، فدعا (حافظ) إلى العشاء فى داره ؛ فلما مدت الأيدى قال الباشا : لى عليك شرط يا حافظ . قال وماهو ؟ قال : كل لقمة بنادرة

فتهلل حافظ وقال : نعم لك على ذلك . ثم أخذ يقص ويأكل ، والعشاء حافل ، وحافظ كان نهماً فما انقطع ولا أخل حتى وفى بالشرط . وهذا لا يمنع أن الباشا كان يتغافل ويتغاضى ويتشاغل بالضحك فيسرع حافظ ويغالط بفمه . . . .

* * *

ولكن هذه المضحكات أضحكت من (حافظ) مرة كما أضحكت به . فلما كان يترجم (مكبث) لشكسبير — وهى كأعماله الناقصة دائماً — دعوه لالقاء (محاضرة) فى نادى المدارس العليا ، والنادى يومئذ يجمع خير الشباب حمية وعلماً ، وكان صاحب السر فيه (السكرتير) زينة شباب الوطنية المرحوم أمين بك الرافعى . فقام حافظ فأنشدهم بعض ما ترجمه نظماً عن شكسبير ومثله تمثيلاً

(١) هذا البيت من قصيدة نظمها حافظ يخاطب فيها الأمريكيين وقد أشرنا فى مقالنا فى المقتطف إلى أن معناه مسروق

أفرغ فيه جهده فأطرب وأعجب . ثم سألوه (المحاضرة) فأخذ يلقى عليهم من نوادره . وبدأ كلامه بهذه النادرة : عرضت على المعتصم جارية يشتريها ، فسألها : أنت بكرٌ أم ثيّب ؟ فقالت : كثرت الفُتوح على عهد المعتصم . . .

ونظر حافظ إلى وجوه القوم فأنكرها ... وبقيت هـذه الوجوه إلى آخر المحاضرة كأنها تقول له : إنك لم تُفلح

ولقد كان هذا من أقوى الأسباب فى تنبُّه (حافظ) إلى مايجب للشباب عليه إن أراد أن يكون شاعره ، فأقبل على القصائد السياسية التى كسبهم بها من بعـد . ونادرة المعتصم كالعورة المكشوفة ؛ ولست أدرى أكان حافظ يعرف النادرة البديعة الأخرى أم لا . فقد عرضت جارية أديبة ظريفة على الرشيد فسألها : أنت بكر أم إيش ؟

فقالت : أنا (أم إيش) يا أمير المؤمنين ...

* * *

وفنُّ (الشعر الاجتماعى) الذى عرف به حافظ ؛ لم يكن فنَّه من قبل ولا كان هو قد تنبه له أو تحراه فى طريقته . فلما جاءت إلى مصر الأمبراطورة (أوجينى) نظم قصيدته النونية التى يقول فيها :

فاعذرينا على القصور كلانا   غيرته طوارئُ الحدثان

ولقيتُه بعدها فسألنى رأيى فى هذه القصيدة ، وكان بها مُدلاًّ مُعجباً شأنه فى كل شعره ؛ فانتقدتُ منها أشياء فى ألفاظها ومعانيها وأشرت إلى الطريقة التى كان يحسن أن تخاطب بها الأمبراطورة . فكأنى أغضبتُه ؛ فقال : إن الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر ، وقالوا لى : إذا نظمتَ فانظم مثل هذا « الشعر الاجتماعى » ، ثم كأنه تنبه إلى أنها طريقة يستطيع أن ينفرد بها فقال : إن كل قصائد شوق الآن غزل ومدح ، ولا أثر فيها لهذا الشعر ، على أنه هو الشعر

وتتابعت قصائده الاجتماعية ، فلقينى بعدها مرة أخرى فقال لى : إن الشاعر الذى لاينظم فى الاجتماعيات ليس عندى بشاعر . وأردت أن أغيظه فقلت له : وما هى الاجتماعيات إلا جمل مقالات الصحف قصائد ... ؟

فالأستاذ الامام وسعد زغلول وقاسم أمين : أحدُ هؤلاء أو جميعُهم أصلُ هذا المذهب الذى ذهب اليه حافظ . وهو كثيراً ما كان يقتبس من الأفكار التى تعرض فى مجلس الشيخ محمد عبده من حديثه أو حديث غيره فيبنى عليها أو يُدخلها فى شعره . وهو أحياناً ردىءُ الأخذ جداً حين يكون المعنى فلسفياً إذ كانت ملكة الفلسفة فيـه كالمعطَّلة ، وإنما هى فى الشاعر من ملكة الحب ، وإنما أولها وأصلها دخول المرأة فى عالم الكلام بإبهامها وترترتها ...

* * *

وكنت أولَ عهـدى بالشعر نظمت قصيدة مدحتُ فيها الأستاذ الامام وأنفذتها اليه ، ثم قابلت حافظ بعدها فقال لى إنه هو تلاها على الامام ، وأنه استحسنها . قلت : فماذا كانت كلمته فيها ؟ قال : إنه قال : لا بأس بها . . .

فاضطرب شيطانى من الغضب ، وقلت له : إن الشيخ ليس بشاعر ، فليس لرأيه فى الشعر كبيرُ معنى . قال : ويحك إن هذا مَبلغُ الاستحسان عنده

قلت : وماذا يقول لك أنت حين تنشده ؟ قال : أعلى من ذلك قليلاً ... فأرضانى والله أن يكون بينى وبين حافظ (قليل) ، وطمعت من يومئذ

وأنا أرى أن « حافظ ابراهيم » إنْ هو إلا ديوان « الشيخ محمد عبده » ، لولا أن هذا هذا ، لما كان ذلك ذلك

ومن أثر الشيخ فى حافظ أنه كان دائماً فى حاجة إلى مَن يَسمعه ، فكان إذا عمل أبياتاً ركب إلى اسماعيل باشا صبرى فى القصر العينى ، وطاف على القهوات والأندية يُسمع الناس بالقوة ... إذ كانت أُذُن الامام هى التى ربَّت الملَكَة فيه ، وقد بينا هذا فى مقالنا فى (المقتطف)

وكان تمام الشعر الحافظىّ أن يُنشـــده حافظ نفسهُ ؛ وما سمعت فى الانشاد أعربَ عربيةً من البارودى ، ولا أعذبَ عذوبةً من الكاظمى ، ولا أفخم فخامةً من حافظ ؛ رحمهم الله جميعاً

وكان أديبنا يُجِلُّ البارودى اجلالاً عظيما ، ولما قال فى مدحه :

فُسِرْ كلُّ معنى فارسىّ بطاعتى   وكلُّ نَفور منه أن يتودَّدا

قلت له : ما معنى هذا ؟ وكيف يأسر البارودى كل معنى فارسىّ وما هو بفارسى ؟

قال : إنه يعرف الفارسية ، وقد نظم فيها ، وعنده مجموعة جمع فيها كل المعانى الفارسية البديعة التى وقف عليها . قلت : فكان الوجه أن تقول له : أعِرنى المجموعة التى عندك . . .

أما الكاظمى فكان حافظ يُجافيه ويُباعده ، حتى قال لى مرة وقد ذكّرته به : « عَقَّقناه يا مصطفى ! »

وما أنس لا أنس فرحَ حافظ حين أعلمته أن الكاظمى يحفظ قصيدة من قصائده . وذلك أنهم فى سنة ١٩٠١ — على ما أذكر — أعلنوا عن جوائز يمنحونها من يجيد فى مدح الخديو ، وجعلوا الحكم فى ذلك إلى البارودى وصبرى والكاظمى . ثم تخلى البارودى وصبرى ، وحكم الكاظمى وحده ، فنال حافظ المدالية الذهبية ونال مثلها السيد توفيق البكرى

ولما زرتُ الكاظمى وكنت يومئذ مبتدئاً فى الشعر ولا أزال فى القَبرْزَمَة [1] قال : لماذا لم تدخل فى هذه المباراة ؟ قلت : وأين أنا من شوقى وحافظ وفلان وفلان ؟ فقال : « ليه تخلّى همّتك ضعيفة ؟ » ثم أسمعنى قصيدة حافظ وكان معجباً بها ، فنقلتُ ذلك إلى حافظ فكاد يطير عن كرسيه فى القهوة

* * *

وكان تعنُّت حافظ على الكاظمى لأنه غير مصرى . ففى سنة ١٩٠٣ كانت تصدر فى القاهرة مجلة اسمها (الثريا) فظهر فى أحد أعدادها مقال عن الشعراء بهذا التوقيع (*) . وانفجر هذا المقالُ انفجار البركان ، وقام به الشعراء وقعدوا ، وكان له فى الثارة عليهم كزَفيف الجيش وقَعْقَعة السلاح ، وتناولته الصحف اليومية ، واستمرت رجفته الأدبية نحو الشهر ؛ وانتهى إلى الخديو ، وتكلم عنه الأستاذ الامام فى مجلسه ، واجتمع له جماعة من كبار أساتذة العصر السوريين كالعلامة سليمان البستانى ، وأديب عصره الشيخ ابراهيم اليازجى ، والمؤرخ الكبير جورجى زيدان — إذ كان صاحب المجلة سورياً — وجعلوا ينفذون إلى صاحب المجلة دسيساً بعد دسيس ليعلموا من هو كاتب المقال وشاع يومئذ أنى أنا الكاتب له ؛ وكان الكاظمى على رأس الشعراء فيه ، فغضب حافظ لذلك غضباً شديداً ، وما كاد يرانى فى القاهرة حتى ابتدرنى بقوله : وربِّ الكعبة أنت كاتب المقال ؛ وذِمة الاسلام أنت صاحبُه

ثم دخلنا إلى « قهوة الشيشة » فقال فى كلامه : إن الذى يغيظنى أن يأتى كاتب المقال بشاعر من غير مصر فيضعه على رءوسنا نحن المصريين . فقلت : ولعل هذا قد غاظك بقدر ما سرّك ألا يكون الذى على رأسك هو شوقى . . .

وغضب السيد توفيق البكرى غضباً من نوع آخر ، فاستعان بالمرحوم السيد مصطفى المنفلوطى استعانة ذهبية . . . . وشمّر المنفلوطى فكتب مقالا فى (مجلة سركيس) يعارض به مقال (الثريا) ، وجعل فيه البكرى على رأس الشعراء . . . ومدحه مدحاً يَرِنُّ رنيناً

أما أنا فتناولنى بما استطاع من الذم وجرّدنى من الألفاظ والمعانى جميعاً ، وعدّنى فى الشعراء ليقول إنى لست بشاعر . . . فكان هذا ردَّ نفسه على نفسه [1]

وتعلّق مقالُ المنفلوطى على المقـال الأوّل فاشتهر به لا بالمنفلوطى ؛ وغضب حافظ مرة ثانية ، فكتب إلىّ كتاباً يذكر فيه تعسُّف هذا الكاتب وتحامله ، ويقول قد وكلتُ اليك أمرَ تأديبه

فكتبت مقالاً فى جريدة (المنبر) وكان يصدرها الأستاذان محمد مسعود وحافظ عوض ، ووضعت كلمة المنفلوطى التى ذمّنى بها فى صدر مقالى أفاخر بها ... وقلت : إنى كذلك الفيلسوف الذى أرادوه أن يشفع إلى مَلِكِه فأكبَّ على قدم الملك حتى شفَّعه ؛ فلما عابوه بأنه أذال حرمةَ الفلسفة بانحنائه على قدم الملك وسجوده له ، قال : ويحكم ، فكيف أصنع إذا كان الملك قد جعل أذُنيه فى رجليه ....

* * *

ولم يكن مضى لى فى معالجة الشعر غير سنتين ، حين ظهر مقال (الثريا) ، ومع ذلك أصبح كل شاعر يريد أن يعرف رأيى فيه ؛ فمررت ذات يوم (بحافظ) وهو فى جماعة لا أعرفهم ، فلما

(١) القرزمة أول قول الشعر حين يكثر الردىء فيه يقال فلان يقرزم

(١) نشر المرحوم المنفلوطى مقاله هذا فى الطبعة الأولى من كتابه (النظرات) بعد أن هذبه ؛ ثم حذفه من الطبعات الأخرى لأنه هو كان يعلم أن النائحة المستأجرة لا يسمى بكاؤها بكاء ....

قضايا التاريخ الكبرى

٢ ـ من قضايا السحرة

صفحة من الجرائم المروعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان لظهور هذه الحقائق المروعة عن جرائم السحرة وقع عميق في باريس وفي فرنسا بأسرها؛ ولم يكن القضاء العادى ليكفى لسحق هذه الطغمة الآثمة وتطهير المجتمع من عيثها الذريع، فرأى لويس الرابع عشر ووزراؤه أن يعهد بعقابها إلى القضاء الاستثنائى، وانتدبت لذلك محكمة خاصة هي «الغرفة الساطعة»(١) الشهيرة في تاريخ ذلك العصر، وسميت كذلك لأن المحاكم الخاصة التي تنتدب للنظر في الجرائم الكبرى كانت تجلس في غرفة تجلل جدرانها بالسواد وتنار بالمشاعل والمصابيح

وعقدت «الغرفة الساطعة» جلستها الأولى في العاشر من ابريل سنة ١٦٧٩، وقررت أن تكون إجراءاتها وتحقيقاتها سرية حتى لا يقف الجمهور على شيء من الأعمال السحرية أو أسرار السموم؛ وتولى الرآسة المستشار لوى بوشرا كونت دى كومبان يعاونه عدة من أعضاء مجلس الدولة؛ وتولى لاريني مهمة القاضي المحقق؛ وكانت إجراءاتها تتلخص في أن كل من تقع عليه شبهة الاتهام يقبض عليه بأمر الملك أعنى بواسطة «اللتر دى كاشيه» (أو رقعة السجن)، وتقدم نتيجة التحقيق الأول إلى النائب العام، وله وحده أن يقرر المواجهة بين الشركاء، وعند انتهاء التحقيق يرفع به تقرير ضاف إلى «الغرفة الساطعة»؛ وهي تقرر ما إذا كان يجب الاستمرار في اعتقال المتهم، فاذا قررت ذلك؛ استمر التحقيق معه؛ وعند نهايته، ترفع أوراق الاتهام إلى المحكمة، فيقرؤها القضاة، ويقدم نائب الملك (النائب العمومى) طلباته سواء بتبرئة المتهم أو بالحكم عليه؛ ثم تسمع أقوال المتهم فوق منصة المحكمة، وبعدها تصدر المحكمة حكمها غير قابل للاستئناف

(١) La Chambre ardente

وكانت «الغرفة الساطعة» تعقد في قصر «الأرسينال»؛ واستمر انعقادها باستمرار حتى يوليه سنة ١٦٨٢ عدا فترة أشهر وقفت فيها جلساتها؛ وبلغ عدد المتهمين الذين قدموا اليها ٤٤٢ متهماً، تقرر استمرار اعتقال ١١٨ منهم؛ وحكم بالاعدام على ستة وثلاثين، وتقرر تعذيبهم بالتحقيق العادى وبالتحقيق الاستثنائى، ثم أعدموا حرقاً كما سيجىء؛ ومات اثنان في السجن؛ وحكم على خمسة بالاشغال الشاقة، وبالنفى على ثلاثة وعشرين؛ وأطلق سراح الباقين لا لأنهم أبرياء، ولكن لأن لهم شركاء في التهم المسندة اليهم من أكابر الدولة والسادة وأرفع سيدات البلاط

* * *

يقول ڤولتير في كتابه «عصر لويس الرابع عشر» في حديثه عن قضية السحرة، إن أعظم رؤوس في المملكة استدعوا لابداء أقوالهم أمام «الغرفة الساطعة» ومنهم ابنتا أخت الكردينال مازاران؛ والدوقة دى بويون، والكونتة دى سواسون والدة البرنس أوجين، والماريشال دى لوكسمبورج؛ وقد كان لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من أكابر المملكة علائق ومعاملات مع السحرة

وقد كشف التحقيق عن واقعة أشنع وأفظع هي أن حياة الملك ذاتها كانت موضعاً لائتمار السحرة، وأن التحريض على اغتيالها لم يجئ إلا من أعماق القصر، ومن أقرب المقربين لشخص الملك ذاته

كانت مدام دى مونتسبان حظية لويس الرابع عشر الشهيرة،

اطمأن بي المجلس قال حافظ: مارأيك في شعر اليازجى؟ فأجبته؛ قال: فالبستانى، فنجيب الحداد، ففلان، ففلان؛ فداود بك عمون؟ قلت: هذا لم أقرأ له إلا قليلاً لا يسوغُ معه الحكم على شعره. قال: فماذا قرأت له؟ قلت: ردَّه على قصيدتك اليه: شجتنا مطالعُ أقمارها. قال فما رأيك في قصيدته هذه؟ قلت: هى من الشعر الوسط الذى لايعلو ولاينزل

فما راعني إلا رجلٌ في المجلس يقول: أنصفتَ والله! فقال حافظ: أقدم لك داود بك عمون ...... رحم الله تلك الأيام؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

قد وصلت فى ذلك العصر إلى ذروة القوة والنفوذ ، وتبوأت فى البلاط أرفع مكانة ، وبسطت سلطانها على الملك المتيم مدى أعوام طويلة ؛ ولكن حل عهد السأم والهجران أخيراً ، ومال الملك عن حظيته القديمة إلى حظية جديدة هى فتاة من وصيفات الشرف تدعى الآنسة دى فونتانج ، فلما شعرت مدام مونتسبان بأفول نجمها اضطرمت سخطاً ويأساً ، وفكرت فى أن تنتقم من الملك وحظيته الجديدة معاً ، واتصلت بالساحرة لا فوازان وزميلة لها تدعى لاتريانون ، فتعهدتا بتدبير مشروع لاغتيال الملك ؛ وتعهد الساحران المسمان رومانى وبرتران بقتل الآنسة دى فونتانج ، وبذلت مدام دى مونتسبان للسحرة مالا وفيراً

وكانت مدام دى مونتسبان إبان نفوذها وسلطانها وثيقة الصلات بلافوازان وشركائها ؛ وكانت تلجأ إلى السحرة التماساً لتوطيد نفوذها بفعل السحر والتمائم ؛ وكانت هذه الحسناء المتكبرة تنزل عند دجل السحرة ، وتقبل الاشتراك فى إجراءات السحر الأسود ، فترقد عارية أمام أولئك الطغام ، وتقوم لافوازان وزملاؤها بإجراء القربان الدموى والسحر الأسود ، وتعتقد الحظيـة الهائمة أنها بذلك تذكى نار حبها فى نفس الملك وتوطد دعائم نفوذها وسلطانها

ويتلخص مشروع اغتيال الملك كما دونه لاريني من أقوال لافوازان وشركائها فى أن الجناة فكروا أولاً فى أن يزهقوا الملك بالسم ، وذلك بأن ينثروه على ثيابه أو حيثما اعتاد أن يمر ، فيستنشقه تباعاً ويموت ببطء ، وتعهدت الآنسة دزبيه وصيفة مدام دى مونتسبان بتأدية هذه المهمة . ولكن لافوازان رأت بعد التفكير أن تلجأ إلى وسيلة أخرى . وذلك أن لويس الرابع عشر اعتاد طبقاً لعادة قديمة أن يتلقى بنفسه فى أيام معينة العرائض التى يرفعها اليه رعاياه بالتظلم والالتماس ، ويسمح لكل بالدخول عليه عندئذ دون فارق أو تمييز ، ففكرت لافوازان أن تعد عريضة من هذا النوع تضمخها بنوع من السم الزعاف ، فاذا تناولها الملك بين يديه سرى اليه السم وهلك ؛ وتعهدت الساحرة لاتريانون باعداد هذه العريضة ، وتعهدت لافوازان بتقديمها إلى الملك . ورؤى أن يكون موضوعها طلب الغوث لشخص يشتغل بالسيميا ويدعى بلسيس ويعتقله المركيز دى ترم فى قصره ، وسمت لافوازان لدى وصيف بالقصر من معارفهـا ليسهل لها مهمة تقديم العريضة بنفسها

وارتاع الجناة لجرأة لافوازان ، وتنبأوا لها بالوقوع بين براثن القضاء متهمة بجريمة دولة ؛ ولم يكن الموت شر مايخشاه السحرة فى تلك العصور ، بل كان التعذيب أشد ما يروعهم ، بيد أن لافوازان كانت تخلبها وتغريها مائة ألف جملتها مدام دى مونتسبان ثمناً للجريمة (نحو مليون فرنك من النقد المعاصر) ، فقصدت إلى سان جرمان فى يوم ٥ مارس سنة ١٦٧٩ ، ثم فى التاسع منه ، محاولة أن تصل إلى الملك فتقدم اليه العريضة المسمومة ، ولكنها لم تفز ببغيتها ، فعادت مكتئبة إلى باريس ، ولكن مصممة على أن تعود فى أول فرصة . بيد أن عين لاريني كانت ساهرة ترقب أعمال السحرة ؛ وفى الثانى عشر من مارس قبض عليها وعلى ابنتها مرجريت ، وعلى عدة من شركائها حسبما أسلفنا

ولما ذاع نبأ القبض على لافوازان وشركائها ، ارتاعت مدام دى مونتسبان ، وغادرت البلاط فى الحال إلى الريف ، فمكثت هنالك مدى حين

* * *

أنفقت المحكمة الخاصة أو « الغرفة الساطعة» أشهراً طويلة فى تحقيقات واجراءات يتسع نطاقهـا يوماً عن يوم ، وكان التحقيق يمتد شيئاً فشيئاً إلى طائفة من الرؤوس الكبيرة ، حتى أن المحقق لاريني اضطر أن يطلب حرساً خاصاً لمرافقته فى زيارته لسجن فنسان حيث اعتقل المتهمون ، وكثر الهمس والوعيد حول قضاة الغرفة الساطعة ، واهتم الملك ووزراؤه بالأمر ، وكتب لوفوا رئيس الوزارة إلى رئيس المحكمة يقول له : إنه لمناسبة ما نمى إلى جلالته من الحديث حول « الغرفة » واجراءاتها ، فان جلالته قد أمر بتبليغ القضاة أنه يؤكد لهم حمايته ، وأنه يطلب اليهم أن يستمروا فى اقامة العدالة بثبات . ثم زاد الملك على ذلك فاستدعى اليه قضاة المحكمة ليطمئنهم ويشجعهم ؛ ويقول لنا لاريني تعليقاً على تلك المقابلة ، إن جلالته قد أوصاه بتحقيق العدالة والواجب ، وإنه يرجو تحقيقاً لخير المجموع أن تنفذ جهد الاستطاعة إلى أسرار جرائم السموم ، وأن تجتث جذورها إذا

استطعنا ، وذلك دون تفريق بين الأشخاص والمقامات

بيد أنه قد طلب إلى القضاة من جهة أخرى أن يلزموا التحفظ فى بعض الأمور ، وظهر أثر هذا التحفظ فى الحرص على عدم حالة لافوازان إلى التعذيب ، وذلك خوفاً من أن ينطلق لسانها حين التعذيب بما لا يراد أن يذاع وأن يعرف ؛ ومع ذلك فقد صرحت لافوازان فى ساعتها الأخيرة عقب الحكم عليها بالاعدام « أنها مضطرة لأن تقول اراحة لضميرها إن عدداً كبيراً من الناس من جميع الطوائف والطبقات قد لجأ اليها سعياً إلى ازهاق الكثيرين ، وإن الباعث الأول لهذه الجرائم إنما هو الفجور »

ولما وقف لويس الرابع عشر على أقوال مرجريت مونفوازان ابنة لافوازان عقب اعدام أمها ، كتب إلى لاريني يطلب اليه أن يدون اعترافاتها وما يترتب على هذه الاعترافات من مواجهات ومناقشات فى ملف خاص ، وكذلك أقوال الساحرين رومانى وبرتران ، وهما من شركاء لافوازان . وقد كانت أقوال مرجريت مونفوازان ذات أهمية خاصة لأنها تتعلق بمشروع تسميم الملك ، ومن جهة أخرى فقد وعد لوفوا الساحر ليساج بأن ينقذ حياته إذا قال كل شيء ، ولكنه لما ذهب فى اعترافاته إلى حدود مروعة ، رمى بالكذب ولم يقبل المحقق أن يصغى اليه بعد ؛ وأدلت متهمة أخرى تدعى فرانسواز فيلاستر بمعلومات مثيرة مدهشة ، فأمر الملك بأن تودع أقوالها فى ملف خاص ، وأن ترفع إلى مجلسه ؛ وهكذا بلغ من اهتمام لويس الرابع عشر بهذه القضية أن لبث يتتبع كل أدوارها ، وأن يسحب من أوراق التحقيق كل ما لا يرغب فى اذاعته ؛ والواقع أن لويس الرابع عشر تأثر أيما تأثر لما كشفت عنه التحقيقات من الوقائع والحقائق المؤلمة التى تصيبه فى أعز عواطفه وفى كرامته الملوكية . ألم تلجأ حظيته التى كان يعبدها إلى السحرة ، وتلوث نفسها وجسمها فى معاهدهم سعياً إلى ازهاقه ؟ أليست مدام دى مونتسبان أم أولاده المحبوبين ؟ ومع ذلك فقد كظم الملك المظيم ألمه وتأثره ؛ ولبثت هذه الوثائق الهائلة التى تكشف عن عاره فى خزائنه السرية أعواماً طويلة حتى أمر باحراقها بعد ذلك فى مدفئه فى يوم من أيام سنة ١٧٠٩ ، أعنى بعد هذه الحوادث بثلاثين عاما

* * *

كانت « الغرفة الساطعة » حاسمة صارمة فى أحكامها ، فقد حكمت بالاعدام والتعذيب على ستة وثلاثين متهماً ثبتت إدانتهم فى مزاولة التسميم والأعمال السحرية الاجرامية ، وذلك من مجموع قدره مائة وثمانية عشر متهماً . ونفذ الاعدام فى المحكوم عليهم تباعاً ؛ وكان إعدام السحرة يجرى بطريق الحرق دائماً . وكانت لافوزان ولافيجوريه ولساج فى مقدمة المحكوم عليهم بهذا الموت المروع . وقد احرقوا معاً فى « ميدان جريف » . وتصف لنا مدام دى سفينيه الكاتبة الشهيرة منظر إحراق الساحرة لافوازان — وقد شهدته بنفسها — وتقول لنا « لقد أسلمت لافوازان روحها للشيطان فى لطف » . وينقل إلينا الكاهن الذى تولى مرافقة الساحرة إلى المحرقة كلماتها الأخيرة وهى : « إننى مثقلة بأكداس من الجرائم ، ولست أدعو الله أن ينقذنى من النار بمعجزة ، لأن ما سألقاه من الجزاء لا يقاس بشىء مما ارتكبت »

ويقدم إلينا فولتير فى كتابه « عصر لويس الرابع عشر » خلاصة لهذه الحوادث والمحاكمات المثيرة ثم يعلق عليها بقوله : « نستطيع أن نتصور أية إشاعات مروعة أذيعت خارج باريس . بيد أن حكم الاعدام الذى قضى به على لافوازان وشركائها قد وضع فى الحال حداً لهذه الأعمال وهذه الجرائم ؛ وقد كانت هذه الحرفة المروعة محصورة فى شرذمة من الناس ، ولم تلوث أخلاق الأمة كلها ؛ بيد أنها طبعت أذهان الناس بميل سقيم إلى اعتبار الوفيات الطبيعية ، نتيجة الجريمة »

والواقع أن هذا الثبت من الآثام والجرائم المروعة يلقى ضياء كبيراً على روح هذا العصر وخلاله — ويؤيد حقيقة تاريخية خالدة ، هى أن عصور العظمة القومية ، تتكشف فى الغالب عن صنوف من الانحطاط المعنوى والاجتماعى تتناسب مع ما تبثه نعماء العصر وترفه من ألوان الفساد الروحى والأخلاق ، ومع ما يذكيه العصر من الشهوات الانسانية الوضيعة . وقد كان عصر لويس الرابع عشر بلا ريب على ما بلغه من الفخامة والبهاء يعانى فعل هذه العناصر الهدامة التى انحدرت بالمجتمع الفرنسى غير بعيد إلى درك من التفكك والانحطاط ، كان نذر الثورة الفرنسية الكبرى (١)

تم البحث — محمد عبد الله عنان

(١) اعتمدنا فى هذا البحث على كتاب العلامة فونك برنتانو Le drame des poions وكتاب فولتير Siecle de Louis XIV

وقفة بالعقيق !

للأستاذ علي الطنطاوي

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفة في العقيق
مائل بين أربع ماثلات ينزع الشوق من فؤاد علوق
« البحتري »

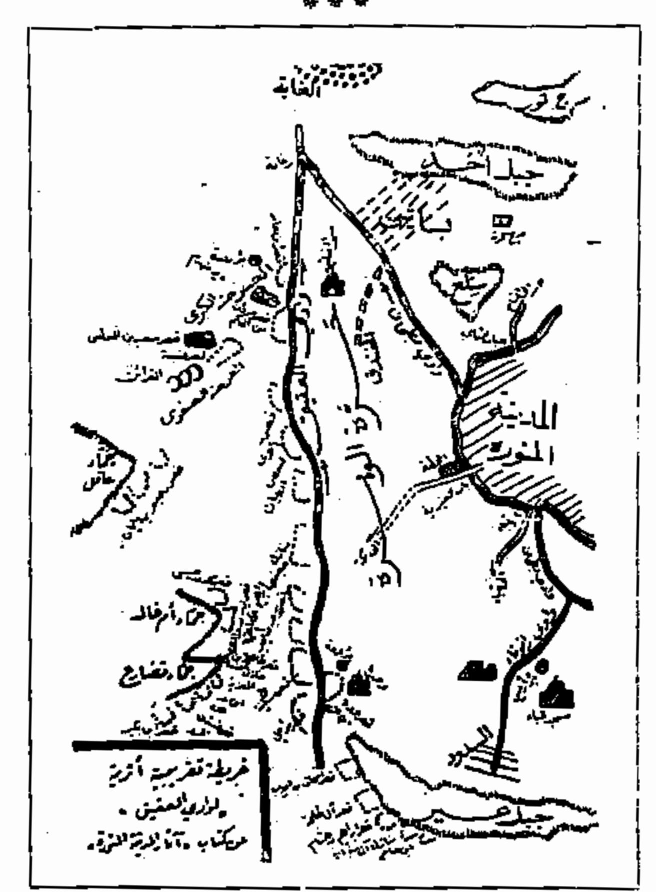
. . . . أصابتنا في المدينة عينٌ من المطر ، فحبستنا في الدار أياماً ، وجاءت بعد مَحْلٍ من الأرض ، وشُحٍّ من السماء ، فروّت الأرض ، وأسالت الأودية ، فاستبشر الناس بنا (١) إذ كان قدومنا خيراً ، وزيارتنا غيثاً ، ومقامنا ربيعاً ؛ وليس أجمل في أرض العرب من الربيع ، ولا أجدى من الغيث ؛ ثم انقشعت الغيوم بعد أيام ، إلا جهاماً من السحاب هفّاً رقيقاً ، وأفتق (٢) قرن الشمس تخلع على الدنيا حُلَّةً نسجت من خيوط النور . . . . وحَليَ اليوم وطاب ، فخرجنا من دورنا نستمتع بجماله وطيبه ، ونملأ صدورنا بهذا النسيم الناعش ، وعيوننا بهذه المناظر الخلابة ، وآنافنا بهذا الأرج يتضوّع من هذه التربة المعطرة « بعطر السماء » . . . وسرنا في « شارع العنبرية » نريد الحرم ، فلم نكد نتعدى « المناخة » حتى قيل : قد سال العقيق .. فاذا الوجوه تطفح بالبشر ، وتفيض بالسرور ، وإذا على كل لسان : قد سال العقيق . . . . وإذا الناس يستعدون للخروج !

وهل علك الناس نفوسهم ، فيقعدون لا يخرجون إلى العقيق ، وقد سال العقيق ؟ وهل يذكر عربيّ العقيق ثم لا يذكر الحب والشعر ، والفنّ والجمال ، والحياة الناعمة والعيش الرغيد ؟ أولم يكن وادي العقيق رمز الهوى والشباب ، ومغنى الغنى والغناء ، ومثابة الفنّ والأدب ، ومجمع العشاق ، وندىّ الشعراء ؟ ألم يكن العقيق قلب المدينة حين كانت المدينة قلب العالم ؟ ألم يولد على جنبات العقيق ديوان كامل من أروع دواوين الأدب العربي وأحلاها ؟ ألم تمش على أطراف العقيق العشرات من القصور الفخمة ، والرياض النضرة ، والمغاني التي فاض منها الشعر والسحر والعطر على الدنيا كلها ؟ أليس لاسم العقيق حلاوة ؟ أما عليه طلاوة ؟ ألا يحلو في الأذن تكراره ، ويلذ اللسان ترداده ؟ . . .

ألم يقرأ أحاديث العقيق ، ويروِ أشعار العقيق ، من لم يَرَ قط العقيق ، فيهوى العقيق ، ويحنّ إلى العقيق ؟ فكيف يسيل العقيق ثم لا يخرج أهل المدينة إلى العقيق ؟ . . .

أولم يسمع عبد العزيز بن الماجِشُون أن قد سال العقيق ، وهو خارج من صلاة الصبح ، فلا يتريث ولا يمر بداره ، ويمضي اليه من ساعته ، فيلهو فيه بعض اللهو ، ويسمع فيه الغناء ، وهو هو في مكانته ووقاره ؟ فكيف بعامة الناس وشبابهم ؟

* * *



خرجنا مع من خرج ، فلم نجاوز السور ونترك عن أيماننا المحطة العظيمة ، الخالية الخاوية ، الكابية الباكية ، التي أضاعها أهلوها ، وأهملوها حتى نسوها ... حتى بدت لنا الحرّة السوداء الواسعة (١) فسلكنا طريقاً نهجاً جديدة ، على يسار الطريق القديمة التي تهبط الحرّة على سلم منقورة في الصخر ، وهذه النقرة هي ثنية الوداع ، التي طلع منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستقبله الولائد بالدفوف ينشدن :

(١) معشر الوفد السوري
(٢) أفتق قرن الشمس ، أي بدا من فتق في السحاب

(١) وهي حرة الوبرة احدى حرتي المدينة ، أو لابتيها

طلع البدر علينــا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

والتي منها أشرق « البدر » على القلوب والعقول ، فأنارها فهي منه في نور إلى يوم القيامة !

وسرنا في هذه الطريق نحواً من كيلين اثنين فانتهينا إلى بئر عروة ، التي حفرها الامام الزاهد العلم عروة بن الزبير ، فكانت في قصره العظيم الذي اندثر ، ولم يبق له من أثر ، وهي أعذب بئر في المدينة وأطيبها ، وكان ماؤها يحمل إلى الرشيد في قوارير وهو مقيم في الرقّة ؛ وإلى جانب البئر قهوة جديدة ، قامت على جذوع النخل ، فجلسنا فيها على كراسيّ مستطيلة ، تتخذ في مقاهي الحجاز مجلساً وسريراً ، تطلّ على الوادي العظيم

والوادي رغيب ، بين عدْوَتيه أكثر من مائة متر ، وعلى العدوة الأخرى جبال حمراء جميلة المنظر ، وقد غص الوادي وامتلأ ، والسيل دفاع يلتطم آذيّه ، وتصطخب أمواجه ، يرمي بالزبد ، ويطوّح بالفقاقيع ، ويجري متكسراً وله خرْخرَة ، وله دَرْدرة ، وعلى جانب الماء حصباء واسعة ، قد جلس فيها المدنيون حلقاً ، يحفون بـ « سماورات » الشاي البراقة العالية ، ويغنون ويطربون ، ما سمحت لهم « الحكومة » أن يغنّوا ويطربوا ...

***

جلس إخواننا يتجاذبون أطراف الحديث ، فيذكرون بلادهم وأوطانهم ، ويحنون إلى الغوطة الغناء ، والمين الخضراء ، والزبداني وبلودان ، وتلك الجنان ، وجلست أحدّق في ماء العقيق ، وأحن إلى أيامه الغر ، وماضيه الفخم ، وأفكر في حاضره الممض ، وواديه القاحل ، فأطيل التحديق ، وأمضي في التفكير حتى أذهل عن نفسي ، وأنسى مكاني ، فأرى صفحة الماء تضطرب وتهتز ، وتختلط فيها الأنوار ، وتمتزج فيها الأضواء ، كأنما هي سبيكة ذهب ، أو قطعة ياقوت ، ألقي عليها نور وهاج ، ثم أراها قد استقرت وسكنت ، فاذا العقيق غير العقيق ، وإذا هو غارق في العطر والنور ، وإذا من حوله العشرات من القصور ، تغيّ كأنها الثريا في السماء ، فتنعكس أنوارها في الماء ، فتتوارى النجوم استحياء ، وتغمض العين خجلاً ، ثم تستتر ببرقع الغمام وتبكي ، فيضحك العقيق لبكاء السماء ، وتضحك الأرض لضحك العقيق !

***

وأرى قصر عروة العظيم ، قد سطعت في شرفاته الأنوار ، وحف به الشعراء والمغنون ينتظرون نزيله الجليل ، الشاعر الغزل الفقيه المحدث عروة بن أذينة ، ليأخذوا من شعره ، ويحفظوا من حديثه ، فاذا طال بهم الانتظار ، وتصرّم الليل ، ولم يفوزوا بطائل ، ذهبوا إلى دورهم وقد أيسوا من لقائه تلك الليلة ، وأزمعوا أن يباكروه من الغد . وسكن العقيق وخلا إلا من عاشق أرق « يناجي طيف من يهوى ، ويمنى عنده السلوى » وخشع الليل ، وأنصت الكون ، فقام عروة على شرفة القصر ، فراقه سكون الليل ، وفتنه منظر العقيق ، فهاج في نفسه الشوق ، فاندفع ينشد :

إن التي زعمت فؤادك ملّها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فبك التي زعمت بها وكلاكما يبدي لصاحبه الصبابة كلها
ويبيت بين جوانحي حب لها لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها يوماً وقد ضحيت اذن لأظلها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها
لما عرضت مسلماً لي حاجة أرجو معونتها وأخشى ذلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا فقال : لعلها معذورة من أجل رقيبها ، فقلت : لعلها

فلما كان الصباح ، غدا أبو السائب المخزومي على عبد الله ، فقال له : أسمعت أبيات عروة أمس ؟ قال : وأية أبيات ؟ قال : وهل يخفى القمر ؟ قوله :

إن التي زعمت فؤادك ملّها . . . .

فأنشده إياها ، فلما بلغ إلى قوله : لعلها ، قال أبو السائب : أحسن والله ، هذا والله الدائم العهد ، الصادق الصبابة ، لا الذي يقول :

إن كان أهلك يمنعونك رغبة عنيّ فأهلي بي أضنّ وأرغب

وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحبك (يعني عروة) حسن ظنه بها ، وطلبه العذر لها ؛ ثم يعرض عليه عبد الله طعاماً فيقول : لا والله ما كنت لآكل بهذه الأبيات طعاماً إلى الليل !

وينتظر عبد الله حتى إذا حان المساء ، وأثر الجوع في أبي السائب ذهب اليه فقال له : « جئت أنشدك وأحدثك » فيقول : « هات ما عندك » ، فيحدثه وينشده ، حتى ينشده بيتي العرجي :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا صبح تلوّح كالأغرّ الأشقر
فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول أبو السائب : أعده عليّ ، فيعيده أبو مصعب ، فيستفز المخزومي الطرب فيحلف بالطلاق لا ينطق بحرف غيره حتى يرجع إلى بيته !

ويمرّ بهما عبد الله بن حسن بن حسن وهو منصرف من مال له يريد المدينة فيسلم عليه ويقول : كيف أمسيت أبا السائب ؟ فيقول :

فتلازما عنـد الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول ابن حسن : مالك يا أبا السائب ، انى لا أكاد أفهم عنك

فيقول :

فتلازما عنـد الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقبل عبد الله بن حسن على عبد الله ، فيقول : متى أنكرت صاحبك ؟ فيقول : منذ الليلة ، فيقول : إنا لله ! أيّ كهل أصيبتْ به قريش ! ثم يمضي

ويمرّ بهما عمران بن محمد التيمي قاضي المدينة يريد مالاً له على بغلة له ومعه غلام على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة ، فيسلم ويقول : كيف أنت يا أبا السائب ؟

فيقول :

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم فضل ثوب المعسر

فيقول القاضي لعبد الله : متى انكرت صاحبك ؟ فيقول : آنفاً ، فيسترجع القاضي ويهمّ بالمضي ، فيمكر عبد الله بصاحبه ويقول : أفتدعه هكذا أيها القاضي وتمضي ؟ والله ما آمن أن يتدهور في بعض آبار العقيق ، قال القاضي : صدقت ، يا غلام ! قيدّ البغلة ، فيضع القيد في رجله وهو يشير بيده ويصيح :

فتلازما عنـد الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر !

* * *

ثم يضطرب الماء ويموج ، فتطمس الصورة فلا أرى في الماء إلا أشباحاً مبهمة ، مهتزة متداخلة ، ثم تبين وتضح ، فاذا أنا أرى قصر عروة ، وقد هيئ وفرش ، ودارت به الخدم والعبيد ، واجتمع من حوله السراة والأعيان ، وهم يتحدثون تبدو عليهم أمارات الملل والقلق ، ملّ الذي ينتظر شيئاً ويبطئ عليه ، وأدنو منهم فأفهم من حديثهم أن القادم صاحب القصر عروة بن الزبير ، أحد الفقهاء السبعة ، وقد كان في دمشق فأصابته الآكلة في رجله ، فأراده الأطباء على قطعها وإلا سرى الداء فأفسد عليه جسده ، وقيل له نسقيك الخرحتى لا تجد ألماً ؛ فقال : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية . قالوا : نسقيك المرقد . قال : ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه

قالوا : فما تصنع إذن ؟ فأخذ في التهليل والتكبير ، وقال : شأنكم بها !

ودخل عليه قوم أنكرهم ، فقال : ماهؤلاء ؟ قالوا : يمسكونك . فان الألم ربما عزب معه الصبر ، وأنت شيخ كبير !

قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي . فقطعت كعبه بالسكين ، حتى إذا بلغ العظم وضع عليه المنشار . . . فقطعت ، وهو يهلل ويكبر . . . ثم أغلي له الزيت في مغارف الحديد ، فحسم به . فغشي عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، فلما رأى القدم بأيديهم ، دعا بها فقلبها في يده ، ثم قال :

أما والذي حملني عليك ، إنه ليعلم إني ما مشيت بك إلى حرام . . . .

وأسمعهم يتحدثون كيف دخل ابنه محمد — وهو فتى المدينة جمالاً وكمالاً ، وأدباً ونسباً — كيف دخل اصطبل الوليد فرمحته دابة فقتلته ، وما يعلم عروة بشيء من ذلك ، وكان عروة رجلاً صالحاً قد عاف الدنيا ، وانصرف عنها ، ولم يرد منها إلا زاداً يقطع عليه الطريق إلى الجنة :

ذكر العُتْبي أن المسجد الحرام جمع مرة بين عبد الملك ابن مروان وعروة وأخويه عبد الله ومُصعَب ، على عهد معاوية ابن أبي سفيان فقال بعضهم لبعض : هلمّ فلنتمنّ

فقال عبد الله : مُنْيَتي أن أملك الحرمين ، وأنال الخلافة

وقال مصعب : منيتي أن أملك العراقين ، وأجمع بين عقيلتي قريش : سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة

وقال عبد الملك : منيتي أن أخلف الأرض كلّها — وأخلف معاوية

فقال عروة : لست في شيء مما أنتم فيه ، منيتي الزهد في الدنيا ، والفوز بالجنة بالآخرة ، وأن أكون ممن يروى عنه هذا العلم

فصرف الدهر من صرفه — إلى أن بلغ كل واحد منهم إلى أمله — فكان عبدالملك يقول : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة ، فلينظر إلى عروة ؟

(البقية في العدد القادم)

علي الطنطاوي

٧ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

تتمـــة

بقيت هَنات مما اقترف الكماليون لا أبغي إحصاءها ، بل أكتفي بواحدة منها هي : لبس القبّعة . والأمر في نفسه هيّن . ولكل أمة أن تتخذ من اللباس ما يلائم هواها ، ويوافق حاجاتها ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ؛ ولكن الكماليين اتخذوا القبّعة شعاراً لهم سيراً على خطتهم في تقليد الأوربيين وإتماماً لسنتهم في محاكاتهم ، وإمعاناً في هجر ما يعيّرهم منهم فيحرمهم شرف الفناء فيهم . ولو أن القوم فكروا ثم فكروا فرأوا أن لا مناص لهم من لبس القبعة ضرورة يقتضيها الزمان والمكان لا بدعة عليها التقليد لكان لهم في العقل مساغ ، وفي العذر متّسع ، ولكان عليهم مع هـذا أن يفهموا الأمة بالدليل ، ويجادلوها بالحسنى ، حتى ترى أن القبعة لباس اختاروه لأنفسهم ، لا ذلة ضربت على رءوسهم ، فقد عاشت الأمة التركية أحقاباً ترى هذه القبعة شعار مخالفي دينها ، ولباس أعداء تاريخها . فلما أكره التركيّ في ثورة التقليد أن يضعها على رأسه أحسّها ذلة طأطأ لها الرأس الأبيّ ، وعاراً ذلت له النفس الكريمة . وحاولت رءوس أن تنبذها فقطعت ، وأرادت نفوس أن تستهجنها فقتلت . وإنك لتبصر رأس التركيّ الأصيد ، وكأنه حمل من الذّل ملء الأرض والتاريخ ، وسيم من الخسف ما تنوء به عزته وعزة آبائه . وليس هيّناً على أمة أن تسام هذه الخطة ، وتحمل على هذا العنت . وإن يكن بعض الترك لبس القبعة عزاً وفخاراً ، فقد لبسها معظمهم خزياً وشناراً ، تنطق بذلك أساريرهم وتبين عنه عيونهم ؛ ولو أن القوم ، إذ رأوا رأيهم ، أخذوا به النشء الصغار ، وخيّروا فيه الكبار ، لهان الأمر بعض الهوان . تصور الشيخ ابن السبعين أو الهِمّ ابن التسعين قد شابت لحيته في الاسلام ، ونبتت نفسه وترعرعت ثم ذبلت في كره القبعة ، يُكره على أن يختم حياته بها ، ويتوج شيبته بسوادها . وانظر ذلك الشيخ الجليل الذي كان يدرس العربية في جامعة استانبول فقيل له : البس القبعة وانزع العمامة . قال : أعزلوني وعدّوني من رجال الدين . قالوا : فاخرج من الجامعة إن لم يكن لك بدّ من عمامتك . فخرج منها وخلفه فيها معلم ألماني ، فكان يأخذ عنه علم العربية ويعلّم الطلبة ، وكفى الله الطلبة عمامة الشيخ وعلمها ، وأسعدهم بقبعة الألماني وركتها

* * *

وقد جاءت الأنباء بأن الايرانيين حذوا حذو الترك في لبس القبعة ، ولم يقنعوا بالبهلوية «التي ابتدعوها» فهنيئاً لهم تقليد القلّدين

فلو كان عبد الله مولى هجوتُه ولكنّ عبد الله مولى مواليا

وأعجب من هذا وأشأم صيحة سمعناها من العراق تدعو إلى الاقتداء بالفرس والترك فيما صنعوا . وهي دعوة إلى هذا التقليد الأشأم الذي يبدأ في ناحية فيسري سريان العلة في جميع النواحي ؛ إذا ضل العرب في الضالين ، وتهافتوا مع المتهافتين ، فبأيّ وزَر تعتصم الحضارة الاسلامية ، وبأي ملاذ يلوذ التاريخ الاسلامي ؟ وكيف تثبت الأمم الاسلامية في هذه الزعازع إذا مال العرب وهم العماد ، وزُلزلوا وهم الأوتاد ؟ كيف وهم الحلماء إذا طاشت الأحلام ، والراسخون إذا زالت الأقدام ؟

ما أحسب العراقيين يستجيبون هذه الدعوة ، فيسنوا للعرب أقبح سنّة ، أو يستبدوا دونهم برأي ، وهم الدعاة إلى الأخوّة العربية ، الغلاة في الحماسة القومية ؛ الأمر ، كما قلت ، هيّن إذا أدت اليه الروية والاختبار ، فليجتمع وفود العرب أو وفود المسلمين كافة في مؤتمر عربي أو اسلامي ، ولينظروا فيما يلائم كل اقليم من الأزياء ، وما يوافق المدنية الحاضرة من ألبسة ، ثم ليختاروا على بينة . وليكن ما يختارونه موافقاً لأزياء أوربا أو الشرق ، أو مخالفاً لكل أزياء العالم ، فلا حرج في هـذا ولا بأس به

لقد لبس العراقيون منذ سنين عمارة سموها الفيصلية جمعت مزايا القبعة الأوربية والعقال العربي ، يسهل خلعها ووضعها ، وتحمي الرأس والرقبة والوجه عند الحاجة ، وهج الشمس ولفح الهجير ، وتفرغ على رأس العربي جمالاً وجلالاً ، وتتوّجه بمجد الماضي والحاضر . فلماذا لا يدعى إلى تعميمها ، ويحتج لها بمزاياها ؟ ألأنها اختراع لم تلده قرائح الأوربيين ، ولباس لم تقرّه سننهم ؟ إن لم يكن بد من شهادة أوربية فسلوا أهل أوربا العالمين بأحوال بلادكم فسيقولون إنها خير لكم من القبعة ، وأجدى

عليكم منها . ليت شعرى إلام ندعو إلى اليقظة فتنامون ، وإلى الحذر فتستسلمون ، وإلى العزة فتهنون ، وإلى الاستقلال فتتبعون ، وإلى الاجتهاد فتقلدون ؟

كفى يا قوم بالزمان واعظاً ، وبالتجارب هادياً . إنكم فى مهب العواصف ، ومفترق الطرق ، فخذوا حذركم ، ونبهوا عقولكم واشحذوا عزائمكم ، ولا تصدروا إلا عن بينة ، ولا تقولوا إلا عن روية ، فانه الحياة أو الموت ، والبقاء أو الفناء .

الخاتمة

رأى القراء مما قدمت أن الترك الكماليين لم يأتوا بجديد فى هذه « النهضة التركية الأخيرة » ولكنهم ساروا على سنن أوربا فأحسنوا وأساءوا . أحسنوا بما أخذوا بأسباب الحياة فاجتهدوا فى تعمير بلادهم وإسعاد أهلها ، وتوسلوا لمعارك الحياة بعددها فدربوا الجيوش واستكثروا من السلاح وجعلوا أنفسهم سادة بلادهم . وأساءوا بما تبعوا أهل أوربا فى امور هى من نُفايات الحضارة ، وحثالات المدنية ، وبما هجروا من أجل ذلك كثيراً من سنن دينهم القويم ، وأخلاقهم الكريمة ، وتاريخهم المجيد . وأذكر فى هذه الخاتمة ما قاله فى أوربا بعض أولى الرأى منذ سنين : قال : « كأن الكماليين بما يفعلون اليوم يقولون يا أهل أوربا ! معذرة ، لا تؤاخذونا بما فعل آباؤنا فقد حاربوكم جهدهم ، وجالدوكم ما استطاعوا ، ودافعوكم جهد طاقتهم ، وما كانوا ينشرون حضارة أو يدافعون عن حضارة . وها نحن أولاء نعترف بأن الخير فى اتباعكم ، والشر فى مخالفتكم ، وإن آباءنا أخطأوا إذ منعوا عنا خيركم ، فاقبلوا الأبناء فى جماعتكم ، ولا تأخذوهم بذنب آبائهم . ها نحن أولاء نحنى رؤوسنا إكباراً لكم ، ونلوم أجدادنا من أجلكم . »

وبعد . فهذه الكلمات التى كتبتها لا تفى بهذا الموضوع العظيم ، ولا بد أن يتعاون الكتاب والمفكرون فى هذه السبيل حتى يجلوا عن الأمة هذه الغمة ، ويدفعوا عنها هذه الفتن المدلهمة ، والشبه المضلة ، ثم يسيروا بها على المحجة البيضاء إلى الغاية المجيدة . فانما نحن فى فتن لا عذر فيها لمقصر ولا حجة فيها لمتهاون

وما أردت بما كتبت إلا وجه الله ، والله هو الحق المبين . وهو حسبنا ونعم الوكيل « إن أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . »

عبد الوهاب عزام

المدنية الأمريكية

كما يصفها أندريه موروا

للأستاذ محمد روحى فيصل

أندريه موروا كاتب فرنسى معاصر ، وروائى واسع الشهرة ؛ وهو الآن فى الخمسين من عمره ، يكتب كثيراً ويعمل كثيراً ، ولعله « الحركة الدائمة » التى ينشدها علماء الطبيعة ، والغريب أن انتاج موروا على كثرته خصب عميق ، فيه ملاحظات نفسية قيمة ، وفيه وصف بارع طريف ، وفيه حلاوة قل أن تجدها عند غيره من الكتاب والروائيين

قام بسياحة إلى أمريكا منذ حين ، زار فى خلالها مدن الشواطئ الشرقية ، ورأى آثارها ، وحاضر فى جامعاتها ، وفهم فى شهرين حقيقة المدنية الأمريكية ومظاهرها الصحيحة ، ثم عاد إلى وطنه وألقى محاضرة قيمة طويلة نقتطف منها ما يلى :

« وصلت باخرتنا إلى نيويورك فى الصباح الباكر فراعتنى المدينة العظيمة الناعمة ، وطنى على شعور غريب جميل . والحق أن مرفأ نيويورك منظر لا أعرف أبهج منه ولا أروع ولا آخذ بلب الرائى الممعن ! بقينا على الماء نسير خمسة أيام ثم طلعت علينا نيويورك بوجهها الضخم وهيكلها العريض كما يطلع الجبل الشاهق على المسافر العانى بعد طول السير وطى الأميال . وجُلنا فى الشوارع نسير على غير هدى ، فاذا المبانى ضخمة بالغة الضخامة ، متينة بالغة المتانة ، تشق الفضاء طولاً وعرضاً واتساعاً . ونلاحظ أن الضخامة مظهر من مظاهر الجمال ، وأعنى أن جمال الشئ إنما يرجع أحياناً إلى ضخامته الناشزة ؛ أرأيت إلى أهرام مصر أو قصر (بيتى) كيف أن علوهما خلع عليهما جمالاً خاصاً على جمال الفن والهندسة »

« والأمريكيون شعب يعمل فى جنون ، فلا يريح جسده ولا يريح عقله ، وإنما يجهدهما فى التجارة والصناعة والاختراع ؛ وهذه الظاهرة هى أقوى ما يلمح العابر السانح من الصور . ويل للمحاضر فى أمريكا ! إنه يخضع للحركة الأمريكية الطاغية ، ففى الصباح يلقى محاضرة ، وعند الظهر يرأس حفلة خطابية ، ثم يحاضر فى نادى النساء ، وفى الساعة الخامسة يقول كلمة فى جامعة كولمبيا أو الاتحاد الفرنسى ؛ وأنى رحل يجد برنامجاً طويلاً سريعاً يبتدئ من الصباح وينتهى فى منتصف الليل ! »

« إن العقلية الأمريكية تتطلع إلى عرفان كل شيء ، وتولع بالجديد الغريب ؛ وهي عقلية فتية تؤمن سريعاً وتكفر كثيراً ؛ وأنت لابد ناجح في أمريكا إن كنت روائياً طريفاً ناقداً متفلسفاً . والكاتب الناشيء يغدو معروفاً في أقل من شهرين ، تقام له الحفلات الرائعة ، وتتحدث إليه الصحف ، وتطبع مؤلفاته مراراً ثم ... ثم يموت في أذهان الجمهور ، وينحدر إلى الخمول والنسيان ، كأنما هي شهرة خاطفة تمتع بها قليلاً وحلم فيها كثيراً ثم عاد إلى الواقع المجهول يتفيأ ظلال الذكرى وبقايا المجد ! »

« والشخصية الفردية لا أثر لها في أمريكا على الأطلاق ، والسعادة الروحية لم يتمتع بها الأمريكي بعد لذاته ؛ دائماً (خدمة الجمهور) هو المذهب السائد الذي يؤمن به الأمريكيون كافة ، وهو مذهب ، على قيمته ، خطر كل الخطر ، مفسد للشخصية والنبوغ ، لأن المرء الذي لايبالي بوجوده الفردي يعد آلة تعمل من غير شعور ولاتطور . والواقع أن المصانع قامت مقام اليد العاملة ، والآلة طغت على الفن ، « والكثرة » هي القياس الذي توزن به قيم الأعمال ونتائج الأشياء »

« وهذه المساوئ التي نذكرها ويذكرها غيرنا ليست مساوئ النفسية الأمريكية ، وإنما هي مساوئ المدنية الغربية الحاضرة . ولئن مات الفن اليدوي في أمريكا وعاشت الآلة فانما يموت الفن وتحيا الآلة في فرنسا وانجلترا وألمانيا وايطاليا ؛ ونستطيع أن نستثني مهنة النقوش والخياطة والفسيفساء التي يمارسها القليل من الخلائق البشرية ؛ أما عامة الشعب فمحشود في المصانع يعمل مجتمعاً من غير تفكير في الذات ؛ والأدب الأمريكي أدب الصناعة حقاً ، يصور ميكانيكية العمل وسرعة الحياة واضطراب المجتمع ؛ أما أزمات النفس ، وثوران العواطف ، وانفعالات الأهواء ، فهي غريبة نكرة في الأدب الأمريكي الحديث .....

الواقع أن الحياة الحاضرة حياتان : حياة آسيوية أخروية متشائمة ساخطة ، نظرت إلى الدنيا من خلال منظار أسود كئيب ، فرأت جوعاً وفقراً ومرضاً وظلماً ، فكرهت المجتمع الحافل ، وانعكفت على التصوف وأحبت الأحلام ، ثم قالت : إنما الدنيا متاع الغرور ! . وحياة أمريكية دنيوية صناعية لا تبالي بالباطن العجيب ، ولاتمنى إلا بالأرض ؛ فالأمريكي قل أن يلتفت إلى نفسه يطالع فيها ويتأمل جوانبها على نحو ما يفعل الأسيوي الحالم ، وإنما هو يطالع في الآلة والمصنع والأرض ، ثم يحاول أن يجد السعادة فيما يحيط به من الدنيا الواقعة المحسوسة

وعندي أن الحياتين على نفعهما لاتصلحان للبشرية ، فالتطرف مذهب لاأحبه لنفسي ولا أرضاه لجنسي ، وإنما أرجو حياة وسطاً بين الحياتين ، قوامها الحس والتفكير ، ومادتها الدنيا والنفس ، وغايتها التقدم والمرح والانتاج . ولعل الحياة الأوربية هي الحياة التي تجمع خصائص الحياتين المتطرفتين : الأسيوية والأمريكية ..

وهنا قد يستطيع الفرنسيون أن يوفقوا بين هذه وتلك ، وينشروا الاعتدال ؛ فالمدنية الفرنسية مدنية قديمة ذات أدب خصب صحيح ، لها أنصار كثيرون ، ولها ماض جليل حافل ، ولها صناعة قوية جميلة . وإنما المهم أن يعرف الفرنسيون أي سبيل يسلكون لذيوع الثقافة الفرنسية وتأثيرها في العقول . ولقد ينبغي قبل كل شيء أن نفتح أعيننا جيداً حين نطوف البلاد ونجول الأرجاء ، ثم نرسل العقل حراً في البحث والتفكير ، والمطالعة والاستنتاج »

محمد روحي فيصل



فرقة الخوارج

بقلم فريد مصطفى عز الدين

فرقة الخوارج من تلك الفرق الهدامة التى نشأت فى مختلف مراحل التاريخ الاسلامى ، وكانت حرباً على الدولة الاسلامية ، وعقبة كأداء فى طريق عزها وازدهارها . أما العوامل التى أدت إلى ظهور الخوارج فكانت فى بادئ الأمر سياسية ثم ما لبثت ميولهم أن اتجهت إلى الناحية الدينية فأخذوا يحوكون حولها معتقداتهم ونظرياتهم

تسميتهم

لا نجد فى التاريخ الاسلامى كله فرقة تعددت أسماؤها كهذه الفرقة ، غير أن اسم الخوارج قد غلب عليها . وقد سموا بالخوارج لخروجهم على الامام على بن أبى طالب فى معركة صفين سنة ٣٧ هجرية لقبوله التحكيم وقولهم : لا حكم إلا لله ، لا حكم للرجال . ويقول بعض المؤرخين إنهم دعوا بالخوارج لخروجهم بعد ظهور نتيجة التحكيم فى رمضان سنة ٣٧ هجرية من الكوفة إلى النهروان . ثم تطور هذا الاسم فأصبح يطلق على كل جماعة خرجت على القانون والسلطة الحاكمة سواء فى صدر الاسلام أو زمن التابعين

أما الخوارج أنفسهم فيقولون إنهم تسموا بهذا الاسم لخروجهم من بيوتهم طلباً للجهاد والاستشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله والدين الحنيف ، ويستندون فى ذلك على قول الله تعالى : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعدّ للكافرين عذاباً مهينا »

وهنالك اسم آخر يطلق على هذه الفرقة وهو اسم الشراة ، ويقال إن الخوارج يفضلونه على الاسم الغالب عليهم ، لأن هذه التسمية تعنى أنهم اشتروا الجنة بالدنيا واستبدلوا الباقية بالفانية استناداً على الآية الكريمة : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

ودعيت هذه الفرقة أيضاً فرقة المحكمة ، وذلك لأنها حكمت الله تعالى ورفضت تحكيم العبيد . ويميز المؤرخون الفرقة الأولى من الخوارج التى انشقت على علىّ بن أبى طالب فى صفين عن الخوارج بدعوتها الفرقة المحكمة الأولى أو الحارورية نسبة إلى حاروراء بقرب الكوفة ، وهى المكان الذى خرجوا إليه ، ويدعون بقية الخوارج فرقة المحكمة

نشأتهم

من الصعب أن نعين العلاقة بين ظهور الخوارج ومسألة التحكيم ، فنقول إن هذه نتيجة لتلك وإنه لولا مسألة التحكيم لما اعترى جيش الامام على ذلك الانقسام ولما نشأت فرقة الخوارج ؛ وقد عنى البعض ببحث هذه النقطة فتبين لهم بعد دراسة عميقة أن نشوء الخوارج ومسألة التحكيم مستقلتان عن بعضهما استقلالاً تاماً . ويعتقد المستشرقون لامانس وكايتانى وولهاوسن أن فرقة الخوارج ظهرت قبل التحكيم مما يدل على صحة الرأى القائل باستقلال المسألتين بعضهما عن بعض . ولكن المستشرق ديلافيدا يخالف رأى لامانس ورفيقه ، ويقول إن الخوارج ظهروا بعد التحكيم

معركة صفين

تولى على بن أبى طالب الخلافة والعالم الاسلامى فى غليان شديد من جراء مقتل الخليفة عثمان بن عفان وعواقب هذه الجريمة ، فلم تكن مبايعته بالاجماع كأسلافه . وكان عدوه الأكبر معاوية بن أبى سفيان والى الشام الذى خرج طالباً للثأر من قاتلى قريبه الخليفة المغدور . فلما انتهى على من أمر طلحة ابن عبد الله والزبير بن العوام فى موقعة الجمل بالقرب من البصرة سار طالباً معاوية فالتقى الجيشان فى سهل صفين وهو مكان قريب من بلدة الرقة فى شمالى شرق الشام

وفى أول صفر من سنة ٣٧ هجرية ، ابتدأ القتال بين الفريقين فرجحت كفة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فخاف معاوية العاقبة ، وعمد إلى الحيلة يساعده على إتقانها الداهية الأكبر عمرو ابن العاص . وبينما كانت الحرب مستمرة إذا بجنود الشام يرفعون المصاحف فجأة على أسنة الرماح طلباً للتحكيم . فلم يؤخذ علىّ بهذه الحيلة ، وقرر الاستمرار فى القتال إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا . ولكن فريقاً كبيراً من جنده على قبل التحكيم وحمل زعيمه على قبوله رغماً عنه . وبعد أن رضى الامام بالتحكيم قام فريق آخر من جنده يندد بالتحكيم ، ويصيح : لا حكم إلا لله ، لا حكم للرجال ، ويظهر أنه كان بين هذا الفريق بعض من أتباع الفريق الأول . فانقسم بذلك جيش على إلى شطرين ، ونجحت الحيلة التى قال فيها عمرو « إن قبل خصومنا التحكيم اختلفوا ، وإن ردوه افترقوا »

ولما ظهرت نتيجة التحكيم التى تقضى بخلع على عن الخلافة — ولا أقول معاوية ، لأن اقرار عمرو بن العاص بخلع صاحبه لم يؤثر فى مركز معاوية لأن خلعه كان وهمياً ، إذ أن معاوية لم يكن خليفة ليخلع عن عرشها — رفض على قبولها ، وهكذا أضعفت نتيجة التحكيم مركز على وقوت مركز معاوية

فقويت برفض على لنتيجة التحكيم حجة الفريق القائل بعدم قبول التحكيم منذ بادىء الأمر ، واكتسب إلى صفه جميع الموتورين من سياسة الامام . وهكذا نرى أن فريق الخوارج كان مؤلفاً من جماعات متفككة العرى تجمعها مناوأة سياسة على ، إما لأنه لم يقبل التحكيم أولاً أو لأنه قبل التحكيم ثانياً ، أو لأنه رفض قبول نتيجته ثالثاً . والقسم الأكبر من الخوارج هم الذين أخذوا على علىّ قبوله التحكيم صارخين : لاحكم إلا لله . ثم انضم إلى هذه الفرق المختلفة كل من كان ناقماً على السلطة أو خارجاً على القانون ، حتى أصبح معسكر الخوارج ملجأ لهؤلاء ، أيام الراشدين والأمويين والعباسيين

وبعد انشقاقهم على جيش الخليفة ساروا إلى حار وراء وانتخبوا عبد الله بن وهب الراسبى خليفة عليهم . وقد اضطر على أن يحمل عليهم قبل أن يسير لقتال معاوية ليأمن شرهم ، فقاتلهم فى معركة عظيمة تدعى معركة النهراوان فى ٨ يوليو سنة ٦٥٨ ميلادية ، وتغلب عليهم ، غير انه دفع ثمن هذا النصر غالياً ، لأن هذه المعركة أضعفت جيشه فأصبح عاجزاً عن المسير إلى سورية لحرب معاوية ، وبقى بالكوفة إلى أن قتله ابن ملجم الخارجى سنة ٦٦١

الخوارج فى عهد الدولة الأموية

اشتدت فى عهد الدولة الأموية قوة الخوارج ، وكانوا من العوامل الرئيسية التى طاحت بحكم الأمويين ، فما من خليفة أموى إلا ثاروا عليه ، غير أنهم ظهروا واشتهروا خصوصاً فى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، وكانت ميادين القتال العراق وخراسان . وقد بدأ بقتال الخوارج مصعب بن الزبير — شقيق عبد الله بن الزبير منافس عبد الملك بن مروان فى الخلافة — وكان قائده المهلب بن أبى صفرة . ولما تغلبت قوات عبد الملك على الزبيريين وقتل مصعب كان لا يزال المهلب يحارب الخوارج فبايع عبد الملك بالخلافة حالما بلغه نعى مصعب وتابع قتاله

ثم أرسل عبد الملك فى سنة ٧٥ هجرية الحجاج بن يوسف الثقفى والياً على العراق فتمكن بشدة بأسه من خضد شوكة الخوارج . وقد امتازت فرقة الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق من فرق الخوارج ببسالتها وشدتها واستماتتها فى ميادين القتال والنزال

الخوارج فى عهد الدولة العباسية

ضعف أمر الخوارج فى عهد الدولة العباسية ولم تعد فرقهم خطراً على الدولة الاسلامية كما كانت شأنها فى العصر الأموى ، غير أنهم لم يعدموا أوقاتاً قاموا فيها ببعض الثورات والفتن . وقد اشتهرت من بين فرقهم فى هذا العهد فرقة الاباضية أتباع عبد الله بن أباض التى ظهرت فى عمان وعلى الخليج الفارسى وفى افريقيا الشمالية أى تونس الخضراء والجزائر والمغرب الأقصى

ولما غلب الخوارج على أمرهم فى الناحية السياسية أخذوا ينصرفون إلى الناحية الدينية ويحوكون حولها نظرياتهم ومعتقداتهم الدينية

تصلب الخوارج وشدتهم فى المعتقدات الدينية

عرفت فرق الخوارج واشتهرت بتصلبها الدينى الشديد وتمسكها بالمعتقدات الدينية التى تدين بها ، ولذا كانت كل جماعة منهم ترى أن زعيمها بدأ ينحرف عن المبادىء التى تعترف بها

انشقت عنه ومن أفراد فرقها وكونت لها فرقة خاصة ، وهذا هو السبب فى تعدد فرق الخوارج وتشعبها : ومن هذه الفرق الفرقة الاباضية والفرقة الصفارية والأزاردة والعجاردة والنجـدات وغيرها . وكانت كل فرقة تنقسم إلى فرق صغيرة عديدة ، وقد ذكر الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » ثمانى فرق من الأزارقة . ولا ريب أن انقسام الخوارج إلى فرق متعددة كان عاملاً قوياً فى إضعاف شأنهم وزوال هيبتهم

معتقدات الخوارج السياسية

قلنا فى صدر هذا المقال إن حركة الخوارج بدأت حركة سياسية ثم تحولت بمضى الوقت إلى حركة دينية . ولذا فان معتقداتهم تدور على وجهين سياسى ودينى . فأما معتقداتهم السياسية فتدور حول مسألة الخلافة ، ولهم فى هذه المسألة مواقف أساسية يخالفون بها السنة والشيعة . فهم مثلا لا يقيدون جنسية الخليفة ولا يمانعون فى أن يكون حتى زنجياً ، بينما أن السنيين لا يجيزون سوى انتخاب قرشى للخلافة . أما الشيعة فيذهبون إلى أبعد من ذلك ولا يعترفون إلا بالخليفة الذى هو من آل البيت

ولا يرى الخوارج أن من الضرورى وجود خليفة على رأس الأمة إذا انتظمت أمور الرعية ، بينما أن الشيعيين يقولون بوجوب بقاء الامام فى كل عصر ودهر . أما السنيون فليس عندهم اجماع عام على هذه المسائل

وليس الخليفة معصوماً عن الخطأ كما هو الحال عند الشيعة ، فهم يجوزون القيام عليـه حتى قتله إذا بدا منه اعوجاج أو عدل عن الصراط المستقيم الذى يتحتم على الخلفاء أن يتبعوه . وهم لا يعترفون من الخلفاء الراشدين إلا بالشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولا يعترفون بالخلفاء الأمويين والعباسيين وأصحاب موقعة الجمل أى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام

معتقدات الخوارج الدينية

أشرت آنفاً إلى التصلب الدينى الشـديد الذى اشتهر به الخوارج ، فهم يطلبون من المؤمن أن يقرن إيمانه بالعمل الحسن إذا أراد الثواب ، لأن الايمان وحده غير كاف لدخول جنة الفردوس . ويكفر الخوارج صاحب الكبيرة ، فهم بذلك على عكس فرقة المرجئة التى ترجئ تكفير المؤمن إلى يوم القيامة . ويذهب الأزارقة — ومذهبهم أشد مذاهب الخوارج تصلباً — إلى أن مخالفيهم مشركون ، ودرجة الاشراك عندهم أشـد وأدهى من درجة الكفر ، فهم يستبيحون قتل مخالفيهم مع نسائهم وأولادهم

ومن الغريب أن هذه الفرقة المتعصبة لمذهبها ، الصلبة فى معتقداتها ، القاسية على إخوانها من المسلمين متسامحة مع اليهود والنصارى وغيرهم من الذميين . والبعض من الأزارقة يعتبر غير المسلم مؤمناً إذا اعترف برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العالمين . ويظهر تسامحهم نحو غير العرب فى أنهم يجيزون خلافة كل مسلم سواء أكان حبشياً أم عبداً زنجياً

ويتردد بعض الخوارج فى قبول سورة يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم لاعتقادهم أنهـا سورة غرامية ، فلا يمكن أن يحويها كتاب الله . والبعض الآخر يتردد فى قبول سورة أبى لهب

أما فى الفقه فهم لا يعترفون من أصوله الأربعة إلا بالقرآن الكريم والسنة الشريفة واجماعهم فقط لا أجماع الأمة الاسلامية. أما القياس فـلا يعترفون به ولا يقبلونه ركناً رابعاً للشريعة الاسـلامية السمحاء التى سنها الله جل جلاله للمسلمين نبراساً ومعواناً . أما التفسير فهم لا يقيدون أنفسهم به ولا يؤولون

ويظهر تصلبهم الدينى بوضوح فى فروض الصلاة ، إذ لا يكفى فى نظرهم أن يكون الجسم عند الصلاة طاهراً ، بل يجب أن يكون الفكر كذلك ؛ لاعتقادهم أن الفكر السيء يبطل الصلاة كما أن الجسم الملوث يبطلها . ونظراً لتصلبهم الشديد فى معتقداتهم السياسية والدينية دعاهم بعض المؤرخين الغربيين The Puritans of Islam

فلسفة الخوارج وأدبهم

ويمثل الخوارج فى إحدى فرقهم حركة فكرية لا يستهان بها جعلت المستشرق الكبير ديلافيدا يجزم بأنه يجب أن يكون من جراء ذلك علاقة وثيقة بين المعتزلة والخوارج . وتنحصر أهميتهم من الناحية الفلسفية فى إثارتهم مسألة الايمان والعمل وكان مجرد تطرف معتقـداتهم يجذب إليهم أحياناً البعض من العلماء والأدباء والشعراء الذين تستهويهم المبادئ المتطرفة

حـــــديث

بقلم الأديب أحمد الطاهر

نفض يديه الشريفتين من غبار الحرب وجلس إلى أصحابه وقال: « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. » قول على سهولة وضعه، وبساطة لفظه، يدل على فهم وثيق للحياة، وإدراك عميق لأسرارها، ووزن صحيح لحقيقتها. وهو يدل من ناحية على عظمة هذه النفس النبوية التي وازنت بين جهاد الغزو، وكفاح الحرب، ـ وفى ذلك ما فيه من كرب وبلاء ـ وبين جهاد الانسان فى الحياة تلقاء ما يلقى من خطوبها، وأحداثها، وصروفها، واعناتها، وما يفرض عليه فيها من حقوق لا مندوحة عن أدائها، فأدرك رسول الله وقال إن الحرب جهادها أصغر، وإن الحياة جهادها أكبر، وإن جهاد الأبدان هيّن يسير، وجهاد النفوس شاق عسير، وإن جهاد الغزو محدود بوقته قصر أو طال، وجهاد الحياة يبدأ بالحياة وينتهي بانتهاء الآجال

وفى كلمة رسول الله تحديد لما بين النفوس والأبدان من صلة تجعل للنفوس على الأبدان سيطرة وسلطاناً، وتسخر الأبدان للنفوس فيما توجهها اليه من غايات ومقاصد

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

وكلما علت النفوس بعدت أغراضها، وجلت مآربها، فاشتد الجهاد والنضال بينها وبين ما يتكاءدها فى سبيل الحياة من عقبات وحوائل، حتى يصبح جهادها عنيفاً حاراً يهون إلى جانبه جهاد الغزو على ما فيه من سفك للدماء

ولا جدال فى أن صاحب السلطان والأمر ومن اضطلع بتدبير شؤون الرعية والقيام على حقوقها، والذود عنها يلقى عناء ومشقة وعسراً، يتضاءل أمامها ما يلقاه أوزاع الناس وعامتهم ممن ليس عليهم من الأمر إلا أن يسخروا أبدانهم لنيل غرض أو بلوغ مقصد

أدرك رسول الله أنه وقد خرج من ميدان الغزو ونفض عن نفسه وعن أصحابه نقع الحرب، سيلقى ميدان جهاد أوسع وأرحب وأكثر عناء وأشد بلاء، أليس عليه بعد هذا الغزو من أعباء الدنيا والدين، ما لا يقوم به إلا أولو العزم المتين؟

أليس عليه أن يقر هذا النصر الذى أحرز، ويرجع الأمور إلى نصابها فى السلم بعد أن نَبَتْ بها مواضعها فى الحرب؟

أليس عليه أن يواصل السير فى تبليغ الرسالة التى اؤتمن عليها، وأن يسوس بالعدل والرحمة الأمة التى بعث إليها، وأن يثبت بين الناس شرعة قد نشر لواءها، ويسلك بهم ودياناً قد مسح غشاءها؟

أليس عليه أن يؤدى لله شكراً على هذا النصر والتأييد؟ وأداء هذا الشكر لا تعرفه إلا هذه النفس العظيمة التى لا ترضى فيه بما دون الغاية، ولا تنتهى فيه إلى نهاية؟

أليس فى ذلك من العناء والجهد ما يهون بجانبه عناء الحرب وجهادها؟

***

وأهون ما يهون به عناء الحرب وجهادها أن رسول الله المؤيد بروح الله، ليس عليه إلا أن يستنفر الناس فينسموا إليه زمراً تخضع لآرائه، وتنضوى تحت لوائه؛ وأما جهاد السلم الذى ألمنا ببعض نواحيه إلماماً فمكتوب عليه وحده، يضطلع بالأمر فيه، ويحيط بأسراره وخوافيه، وهو فى هــذا الجهاد أعزل أكشف لا عدة له إلا نفس عظيمة فى صدره، ووعد من الله بنصره!

وسوق الناس إلى الحرب ليس بالأمر الشاق العسير: فساعة الحرب تسبقها أحداث وخطوب وإحن وحفائظ: تستفز الهمم، وتستنفر النفوس، وتستثير العزائم. فما هو إلا أن

وقد حفظت لنا كتب الأدب العربى كثيراً من أدبهم وشعرهم وحكمهم وخصوصاً آثار شاعرهم العظيم وخطيبهم المفوه قطرى بن الفجاءة

الخوارج اليوم

لم يبق من فرق الخوارج إلى اليوم إلا فرقة الأباضية، وهى من الفرق المعتدلة، وقد نشأت فى الأماكن الاسلامية النائية، فى عمان ثم فى شرق أفريقيا الشرقية، ثم فى أفريقيا الشمالية. وتكون هذه الفرقة الآن دولة مستقلة فى داخلية سلطنة عمان على الخليج الفارسى

فريد مصطفى عز الدين

يستنفروا فينفروا وينساقوا إلى الحرب وِرْداً ، يؤزهم الحماس أزّاً ، حتى إذا « حميت وشب ضرامها » رخصت الأرواح وهان الموت : فما ترى الناس يفكرون أو يترددون ، ولكن إلى حياض الردى يتدافعون : لا يصدهم عنها صادّ ولا يتكاءدهم فى سبيلها عقبة ، وأنى لهم أن يترددوا والحافز لا تفتر همته ، والدافع لا تهن عزمته . وهم لا يستشعرون عناءً للحرب ، ولا يرون خطراً للقتال ، ولا يفكرون فى بلاء الغزو . لأنهم لا يجدون متسعاً لأن يشعروا أو يبصروا أو يفكروا

أما فى السلم لما أشق الرسالة وما أخطر الجهاد ! الناس هادئون وادعون ، يجدون من الوقت والطمأنينة متسعاً للتخاذل والتفكير ، والتردد والتدبير ، والاختلاف والمحال ، والتنكر والجدال ، أليس شاقاً جهاد الرسول : وهو يدعوهم إلى دين لم يعرفه آباؤهم ، وخلق لم تألفه طباعهم ، وحياة غير التى ألفوها ؟

* * *

على أن رسول الله حين أشار إلى الجهاد الأكبر ، جهاد الحياة ، لم يكن يحدث الناس بما سيلقاه وحده من نصب وإعنات ، وإنما أراد أن يذكرهم بما كتب عليهم جميعاً من جهاد فى الحياة . فما كتب الجهاد على الزعماء دون الدهماء ، ولا كتب على القواد دون الأجناد ، ولا على الرعاة دون الرعية ، ولا على الكبير دون الصغير ، إنما جهاد الحياة فرض يستقبل الناس حين يستقبلون الحياة ، ولا ينصرف عنهم حتى تنصرف عنهم الحياة

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأفسح مما كان فيه وأرغد

وهذا الطفل إذا اشتد جاهد فى الحياة جهاداً يتسق مع شأنه فى الحياة ، ولا يزال الطفل ينمو ويخطو فى حياته ، ونصيبه من الجهاد ينمو ويخطو ألزمَ له من ظله حتى مماته . وجهاده فى مراحل حياته يعتريه من الأعراض والصور مايعترى كل كائن حى فى أطوار حياته من نمو وقوة ونشاط وضعف وعجز وفتور وغير ذلك

فالرضيع لا يجاهد إلا فيما يشعر به من ألم أو حاجة . ولذا يكون جهاده « ذاتياً » محدوداً ، يستعين فيه بأعضاء بدنه ؛ فإن ألح عليه الألم والحاجة استعان فيه بالبكاء حتى يغاث فيظفر ، أو يعيى فينام فيقهر . ثم ينمو الطفل فيدرك معنى « الملكية » فيجاهد فى الاحتفاظ بما ملك ويسعى للملكية مالا يملك ، فيزداد جهاده ، ويشتد ويحول إلى غير ما كان عليه جهاد الرضيع

والشاب فى شبابه يدرك معنى الحياة فيستشرف إلى نعيمها وملذاتها ، وتتمدد حاجاته ومطامعه ، ويسعى حثيثاً للاستمتاع بالنعيم واللذة ، ويُعِدّ نفسه لما تفرضه عليه سنن الحياة ، فيجاهد فى ذلك جهاداً عنيفاً ، ويلقى فى جهاده نصباً

والكهل يسعى وراء الرزق : يدره لنفسه ، ويدر اخلافه على أهله وأبنائه ، ويدخر منه لعقبه وأخلافه . وإنه لواجد فى سبيل الرزق عقبات وعوائق . وإنه لجاهد مجاهد فى تذليلها ، والتغلب عليها ، وإن جهاده لشديد ، وإنه لأكثر بلاءً وعناءً

والشيخ الفانى الذى نفض يديه من الدنيا ، تتنابه الأمراض والعلل ، ويلح عليه الفناء ، وتخذله قواه ؛ فيجاهد فى الحياة الباقية له جهاداً عنيفاً جباراً ، ولكنه خافت صامت ؛ يكسر من حدته صبر الشيوخ وأناتهم ، وضعف آمالهم واستسلامهم

أولئك جميعاً تفرض عليهم الحياة فروضاً ، وتلوح لهم بمطامع وهم يبسطون إليها آمالاً : ثم تقيم لهم فى السبيل عقبات ، وتنصب بينهم وبين مطامعهم حجاباً ، وتجعل أمانيهم سراباً ، وهم لاينفكون يجاهدون : تنزل بهم البأساء ، فيطمعهم الرجاء ، وتنقطع بهم أسباب الأمل ، فيغريهم طول الأجل

حتى الرجل الذى لا تشغله الدنيا بزخرفها . والذى يصدف عن مطامعها ، والذى يؤثر الآخرة على الأولى : ذلك جهاده قوى حاد . فهو أبداً فى جهاد مع نفسه ولنفسه : يروضها على الزهد والاستغناء ، ويدفع عنها عوامل الاغراء ، ويسوقها إلى الفضيلة ، ويباعد بينها وبين الرذيلة ، وهو جهاد لا يهون ، ولا يصبر عليه إلا القليلون

وأهون الناس شأناً فى الحياة وأقلهم تقديراً لشأنها وأكثرهم استخفافاً بها لا محيد له عن الجهاد فيها : أليس عليه أن يجاهد الحر والبرد والمطر والشمس والعلل والأمراض ؟ ذلك جهاد على سذاجته شاق وعسير

ما أصدق رسول الله فيما قال ، وما أبعد نظره فيما رأى !

البكباشى أحمد الطاهر

من مشاهد الشرق

٣ ـ طائفة البهرا فى الهند

فى حضرة داعى الدعاة

بقلم محمد نزيه

مضى محمد على بخش رئيس الوزارة البهرية وأنا فى أثره ، فى بعض جادة القصر ، حتى انتهى وانتهيت معه إلى باحة فسيحة أمام سلم مديد ، ذى ست درجات من رخام أبيض يشف عن زرقة رقيقة ، فلما أن دَرّجْناه كنا أمام بابين رحيبين ، كلاهما سبيل إلى تلك الحجرة الرهيبة التى يستقبل داعى الدعاة زواره فيها ؛ وإذا كانت غرفة الانتظار قد تقاضتنا خلع الأحذية قبل ولوجها ، فأحْرِ بغرفة الشيخ الأكبر أن تطالب قصادها بمثل ذلك وأكثر منه . وكذلك هتفت بى نفسى هذه المرة بما هتف به سائق السيارة من قبل ، أن اخلع نعليك فانك قادم على أنيس المهدى المنتظر وجليسه ، وأمينه سراً وعلانية ، وأبى بكره من دون الخلق أجمعين !

ولقد ظللت مذ أُسْرِىَ بى من غرفة الانتظار إلى غرفة الملتقى — وكلاهما حرام — منصرفاً عن كل ما عسى أن يتداول سمع المرء وبصره ، إلى التفكير فى ذلك الرجل الذى يتقاضى جميع الناس كل أسباب التقديس له ، بين مؤمن بمذهبه ومستريب به ومنكر له ، ثلاثتهم من تقديس الشيخ فى أوضاع متشاكلة ما أرادوا لقاءه ، بل وما يكون هذا التقديس من ثالث الثلاثة تكلفا ولاصناعة ولا زَيْفا ، فقد كنت أحسبه كذلك من قبل ، وهأنذا الآن فى منتصف الطريق بين الحجرتين ، مفعم النفس رهبة شديدة تكاد تطغى على الرغبة الشديدة فى رؤية الشيخ ، بل وما فتئت هذه الرهبة تشتد سريعاً ، حتى لقد بلغت شأوها فى ثلاث من خطواتى ، وإذا بالحواس الخمس قد رقت فى بعض الدقيقة ودق ارهافها ، فكأنما غادرت عالم الملموس والمحسوس إلى عالم الالهام ؛ وما دام هذا العالم الجديد لايدرك مما يحيط بالمرء وإنما يدرك من باطنه ، من دخائل نفسه ، فقد انقلبت حواسي كلها إلى نفسى ، وكأننى بت لا أعى من الوجود شيئاً ، ولم تزل هذه النفس المرتهبة تتسع حتى تملأ كل فضاء داخل الجسد ، وتشمل القلب كله ، وتغير على ما فوقه وما تحته ، وما عن يمينه وما عن يساره ، وما أمامه وما خلفه ، كل ذلك فى خطى الكهرباء ، فلم أكد أتم الخطوة الرابعة حتى كنت نفساً ولا جسد

وأخذت هذه القوة الجديدة تتخيل صورة الشيخ وتحاول رسمها ، فاذا دأبت فى هذا السبيل جاهدة ، انبعثت ذوات الرهبة ، فتوثبت على القلب فاختل نظام دقاته ، وهنالك تضطرب النفس فلا تقوى على المضى فى مهمتها ، لذلك لم ترسم الصورة حتى صرت على قيد خطوات من صاحبها ، فتقدمت اليه حتى استويت أمامه . لم يكن فى وسعى ولا فى وسع سواى أن يصافح الشيخ دون أن ينحنى ؛ إلا أن يركع ، مالم يكن قصيرا ، ولست بقصير . ذلك أنه يجلس على كرسى لعل مقعده أدنى إلى الأرض مما يعهد فى كل كرسى ، ولم ينهض الشيخ عنه ليصافحنى واقفاً ، وربما كان لا يعرف الوقوف من أسباب التحية ، فلا مناص لمن شاء مصافحته من الانحناء ، ثم لا مناص لمن استأذن عليه من المصافحة ، ومن يدرى ؟ لعل هذا الكرسى القصير إنما دبر تدبيراً ، ثم إن هذا الكرسى قد عوض عن قصر أرجله رحابة فى صدره ، حتى لقد تبينت الشيخ من الكرسى ولم أتبين الكرسى من الشيخ

صافحت الشيخ منحنياً ولا بد ، فاذا كف نحيل لعل الرقّ يؤذى عظمه ، فلقد أحسست أننى أقبض على حزمة من الأقلام ، بل أحسست أكثر من ذلك بالمفاصل الدقيقة لكل أصبع ، وكأنما انفرطت عظامها فى يدى فما يستمسك عددها علىّ ! لكأن هذه الكف ترتفع من تلقاء نفسها إلى فمى ، فلقد علمت أننى رفعتها ، ولعل ذلك إكبار ولعله رفق بالضعف ، ولا سيما وهو ضعف الكبر ؛ ولشد ما يحنو بعض القوة على بعض الضعف ؛ إذن فقد انحنيت فصافحت ثم قبلت ، وخطوت بعد ذلك إلى الكرسى الواحد الذى يشاطر الغرفة كرسى الشيخ ، ثم تحركت حدقتا عينى فطافتا ببعض الحجرة وميضا حتى استقرتا لحظة على صاحبى محمد على بخش وقد ألصق ظهره بالجدار ، وأمال رأسه إلى الامام قليلا ، وشبك أصابع كفيه على صدره تحت لحيته ؛ وجمد كذلك كأنه التمثال

سألني داعي الدعاة عن موقع المدينة من نفسي، ثم عن الصحافة المصرية وحظها من النهوض، فلما أن فرغ من أسئلته وحان دوري في السؤال، وكنت أعلم أن التحدث في مسائل الدين هو أشهى الأحاديث لدين رجاله، وأعلم إلى ذلك علماً ليس بالظن أن أقران الشيخ لا يفتأون ينعون على الناس تركهم أمر الآخرة، فكل امرىء عندهم مُفرِّط مهما تخفف من زخارف العاجلة وتولى يرجي الآجلة، ما يألونه إذ يرونه ذلك النصح الممزوج بالتعنيف والاتهام، فهم متسخطون متبرمون رغماً من رغم، أثرة بالكمال من دون الناس، فقد استهللت بالأسف لاهمال المسلمين أمور دينهم وأمور دنياهم معاً، وكأنما قلت للسيل انهمر، فقد تدفق الشيخ فلم يترك في معجم الألم كلمة الا قالها، ولا حركة الا أتاها، بعينيه وشفتيه وكفيه، قال بلسانه العربي المبين — وقد أسلفت أنه من سلالة عربية قريبة العهد بموطنها الأول، اليمن: (إن دولة الاسلام قد انهارت أركانها في كل مكان، ودكت حصون الدين وسقطت معاقله، حتى عادت أطلالاً نناجيها) ثم راح يبعث قول الشريف الرضي:

ولقد مررت على ديارهمُ ... وطلولها بيد البلى نهبُ
فبكيت حتى ضج من لغب ... نضوى ولج بعذلي الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيت ... عني الطلول تلفت القلب

قلت: هل يرى مولانا أن تخلف العالم الاسلامي ناجم عن إهمال الدين؟ قال: (عن اهماله فقط، وليس في أداء فرائضه وحسب، بل في التأدب بآدابه، بل في الاستمساك بأسباب التعاون والمودة، وإطراح الخصومة والعداوة والبغضاء، وحدب الغني على الفقير، واطمئنان الفقير إلى الغني، وخشية الله والآخرة، واتقاء الخزي والندامة، والحسرة والعذاب يوم القيامة)

قلت: وهل من أمل في إصلاح ما انهدم؟ فانبسطت أسرة الشيخ دفعة واحدة والتمعت عيناه، وطالعني منه صوت يتجلى فيه الحزم والعزم والايمان والبأس الشديد وهو يقول: (نعم. إن الأمر لله في دين الله، وإنه ليحميه ويعلي كلمته حين يشاء، ولكنما يُتركُ الأمر للناس حتى يُصلَوا بالفشل وَيَيْئسوا من النهوض، وإذ ذاك يقضي الله فاذا الحق في الذروة والباطل في الرغام)

قلت: أفلا يحاسب رجال الدين على شيء مما نرى من أمر الدين.؟ فسكن الشيخ لحظة ثم قال: (أعلم أن كثيراً من الناس يقومون برجال الدين ويقصدون، ولكن ما الذي يسع رجال الدين أن يفعلوا إن كانوا في شعب متخاذل مستضعف؟ إنهم إذ ذاك لا يفضلون أبناء شعبهم، ولعلك تعلم أن الفساد جرثومة سريعة العدوى؛ وهب أن بين رجال الدين من امتنع من جراثيم الفساد، فماذا يفعل وأهل أمته كلهم ذلك الحواري الذي شهد على عيسى بن مريم؟!. أفتدري كيف تقهر الأمراض العصية في الأجساد، إن أحدث أسباب ذلك وأصدقها نتيجة أن يلقح الجسد المريض بعين الجراثيم التي تمرح فيه، ولم يتنبه الطب إلى ذلك إلا بعد قرون من تنبه الحكام إلى أثر هذه الوسيلة نفسها في أخلاق المحكومين، ولن يعدم زمن من الأزمان، ولن تبرأ جماعة من الجماعات، من أشرار وإن قلوا، وتلك سنة الحياة، وقد احتال الظلمة وافتنوا في الاحتيال، حتى استكشفوا أن رجل الدين الصالح لا يقهر إلا برجل الدين الطالح، ثم هم يزودون صاحبهم بقوة المال وسطوة البطش والعدوان، ويذودون عنه بعد ذلك إن أحدق به خطر، فاذا سئلوا في ذلك قالوا، إنما نرفع كلمة الدين ونعيذه من الهوان)

وتنفس الشيخ برهة ثم قال: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، وقد نزل الدين سهلاً مفهوماً، فلنأخذ بعبادته التي لا تحتاج إلى رجال الدين، فاذا استقرت هذه الأوليات في النفوس، سهل علينا أن نميز الصالح من الطالح من رجال الدين فنأخذ عن أولها وندع الآخر. على الآباء والأمهات جميعاً بهذه المهمة، كل يؤدب أبناءه بأدب الدين منذ الصغر، قبل أن يبلغ الطفل أشده، فيصبح تحت رحمة القانون والبيئة والمطامع)

قلت: وهل من سبيل إلى تخفيف الفساد؟ قال: (نعم، ولكن أسباب التخفيف لا تعرض هكذا على بساط الريح، فلا بد من البحث والروية والتثبت، ولا سيما ونحن نريد أن نعالج جماعات كثيرة مختلفة العلل، وقد يصلح لهذه من الدواء ما تزيد تلك علة على علة، ولذا وجب أن يجتمع أطباء الدين والأخلاق من كل جماعة أطباؤها، فاذا تذاكروا جميعاً حتى اهتدوا إلى العلة المشتركة، تذاكروا حتى يهتدوا الى الدواء المشترك. المؤتمرات، على أن تكون خالصة لله وحده، نقية من الدخلاء، بريئة من الشبهات، حرة أكمل حرية، مطبوعة على انكار الذات والايثار

دون الأثرة) وسكن الشيخ برهة وقد بدا على محياه أنه يطلب الراحة ؛ ثم ضغط على جرس كهربائي مثبت على منضدة صغيرة أمامه ، فما هي إلا ثوان معدودة حتى أقبل من داخل الحجرة خادم يحمل بيمينه لفافة من قماش ، تقدم بها الى الشيخ فتناولها منه ، ثم مد بها يده الى ناحيتي ، فخطوت اليه وأخذتها شاكراً ، وودعت داعي الدعاة بعد أن ألقيت على سمعه ماواتاني به الله من كلمات الشكر والتقدير

أما لفافة القماش ، فقد تبينت بعد أن بارحت الغرفة أنها (شال) من الكشمير وسط في صنعته وقيمته ، ثم علمت أنه نفحة الشيخ لكل زائر غريب ، وإنما تختلف قيمتها بقدر ما للزائر من مكانة في قومه ، وأما غرفة الزيارة فرحيبة تكاد تتسع ثلاثين متراً في نصفها ، يرتفع سقفها على عمد من رخام ، عارية الجدران من الصور ، حافلة الأديم ببساط أبيض عار من زهو النقوش ، وقد أسلفت أنه لم يكن بها إلا كرسيان للشيخ ولي ، ولعل هذه البساطة في مظاهرها والرحابة في اتساعها مما يزيدها رهبة ويزيد صاحبها إجلالاً . أما الشيخ فانه من نحول الجسد ورقته كأنما إياه كان المتنبي يعني لما قال :

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وهو على شدة نحوله ليس بالطويل القامة ، كأنه غاندي ، لولا أن وجهه المستطيل خفيف السمرة ، مشرق الديباجة ، متسع العينين حتى لتملآن نصف وجهه ، حديد البصر ، كأنما تطل نفسه المطمئنة من عينيه ، ضاحك السن في وقار كثير ، تنبئك مظاهره كلها بأنه رجل موطأ الأكناف حقاً . وقد استتر رأسه تحت طاقية بيضاء ، وغطى جسمه بجلباب أبيض ، وهو في غرفته مثال نادر الأنداد للبساطة في الغنى ، والتواضع في الجاه

كررت إلى جادة القصر يصحبني محمد علي بخش ، فمضينا إلى مسجد القصر متحدثين بالانجليزية فانه لا يعرف العربية ، فاذا نحن حيال مسجد حديث البناء أنيقه ، متوسط السعة ، مفروش بالسجاد ، ذي ثلاثة أبواب ، اثنان منها لدخول المصلين من الرجال ، والثالث لدخول المصليات من النساء ، وقد فصل بينهن وبين الرجال في رواق المسجد جدار رقيق لا يتصل بسقفه ، أما المنبر فمن الخشب الثمين المتين وقد خلا من كل زخرف ، كل ما في المسجد ناطق ببساطته ، خلا ثرياته الثمينة التي تؤلف في انتظامها أروع الشكول . فلما فرغنا من تفقد المسجد دعاني صاحبي إلى التدريج إلى أعلى القصر ، حيث أعد به موضع يشرف على المدينة كلها ، فترى منه واضحة المعالم جلية الرسوم ، ولولا سدول الليل لاستطعت في هذه القمة إحصاء مساجد (عمي) وعد حدائقها ، وتبين أعلامها والتحديق في ميادينها ، على أنك لا ترى المدينة وحدها من هذه القمة ، بل ترى البحر وعبابه ينساب إلى عالم المجهول ما؟

القاهرة محمد زيد

وزارة المعارف العمومية

اللجنة الوزارية الاستشارية لبعثات الحكومة

تعلن إدارة البعثات بوزارة المعارف أنها ستوفد في هذا العام بعثتين عضو واحد من الحاصلين على دبلوم الهندسة الملكية قسم (الكهرباء) للتخصص في الرياضة والطبيعة بجامعة كمبردج بانجلترا لاعداده للتدريس بمدرسة الهندسة الملكية

فعلى من يريد ترشيح نفسه لهذه البعثة أن يقدم طلبه بذلك على الاستمارة الخاصة المعدة لذلك . ويمكن الحصول عليها من إدارة مخازن وزارة المعارف بدرب الجماميز بالقاهرة نظير دفع ثلاثين مليماً . ويرسل هذا الطلب بعد استيفائه مسجلاً بطريق البريد إلى : حضرة صاحب المعالي رئيس لجنة البعثات بالمعارف . وذلك إذا كان الطالب غير موظف في الحكومة . أما إذا كان موظفاً فيها فيجب أن يقدم طلبه إلى رئيس المصلحة التي هو تابع لها

وفي كلتا الحالتين يجب ألا يتأخر وصول الطالب إلى سكرتارية لجنة البعثات بوزارة المعارف عن ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٥

الأدب والتاريخ

٢ ـ الرافعي

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

الرافعي الأديب

مضى الرافعي في قرض الشعر، معنياً به، منصرفاً في فنونه، ذاهباً فيه مذاهبه، إلى جانب عنايته بالتأليف والكتابة، وانكبابه على العلم والتحصيل، فوضع في سنة ١٩١١ كتابه (تاريخ آداب العرب)، وحسبك به من كتاب أن يقضي الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد بك أسبوعاً يخطب عنه في مجالس العاصمة(١) وقد كتب عنه الأمير شكيب أرسلان — وهو أشهر كتاب العربية في ذلك الوقت — مقالة في صدر (المؤيد) جاء فيها: «لو كان هذا الكتاب في بيت حرام إخراجُه للناس منه، لكان جديراً بأن يُحجّ إليه؛ ولو عُكِف على غير كتاب الله في نواشئ الأسحار، لكان جديراً بأن يُعكف عليه . . . »

وقال عنه المقتطف: «إنه كتاب سُنّة ...» وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبل ومن بعدُ لغير هذا الكتاب

ومن يقرأ كتاب الرافعي (تاريخ آداب العرب) يعرفه عالماً عميق البحث، مُرتّب الفكر، واسعَ المعرفة؛ إلى جانب معرفته به شاعراً عربيّ الديباجة، مُشرق المعنى، مشبوبَ العاطفة؛ على أنه كان يومئذ لم يجاوز الثلاثين ...

ثم ألّف الرافعي (كتاب المساكين) الذي يقول عنه فقيدُ العربية العلّامة أحمد زكي باشا: «لقد جعلتَ لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وجوته كما للألمان جوته، وهوجو كما للفرنسيين هوجو.»

وتألق نجم الرافعي الشاعر العالم الأديب، وبرز اسمه بين عشرات الأسماء من أدباء عصره براقاً تلتمع أضواؤه وترى أشعّتها إلى بعيد؛ على أن هذه المنزلة الكريمة التي نالها الرافعي بين الكتّاب إلى جانب منزلته في الشعر — لم تكن غريبة؛ فقد حدّثني أديب فاضل كانت له صلة بالعلّامة الشيخ ابراهيم اليازجي: أن الرافعي لما طبع الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٣ وأهدى منه نسخة إلى الأستاذ اليازجي — أبطأ في الكتابة عن الديوان؛ فسأله هذا الأديب الفاضل في ذلك فقال: لقد قرأت مقدّمة الديوان فأكبرت أن يكون كاتبها من عصرنا؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها في مظانّها من كتب العربية، مما أخادع نفسي في قدرة هذا الشيخ على كتابة مثلها. فقال له: إنه ليس بشيخ، بل هو فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين . .

وليس عجيباً أن يكون هذا كلام اليازجي، فقد برهن الرافعي من بعدُ ألفَ برهان على ذلك. وإنما كتب هذه المقدمة وعُني بها حتى جاءت ما جاءت، ليعارض بها مقدمة حافظ لديوانه الذي نشره قبل ذلك بقليل؛ وكان لمقدمة حافظ هذه حديث طويل، حتى نسبها بعضهم يومئذ إلى المويلحي؛ ولكن مقدمة ديوان الرافعي جاءت بعدها تقطع قول كل خطيب؛ واحتفل بها (المؤيد) أيّما احتفال فنشرها في صدره، والمؤيد يومئذ جريدة العالم العربي

بين الجديد والقديم:

ثم بدأ الرافعي يميل عن الشعر رويداً رويداً حتى هجره منذ عامين، لم ينظم فيهما غير قصيدتين اثنتين نُشرتا له في مجلة المقتطف. وإنها لخسارة كبيرة أن ينصرف الرافعي عن الشعر ويترك ميدانه خالياً . . على أنه لم يهجر غير الشعر المنظوم، وهذه كتاباته المنثورة ضربٌ من الشعر أفسحُ مدًى وأبعد غاية، وإنه لينشئُ بها أدباً جديداً في العربية على رغم ما يُتّهم بالتقليد والمحافظة على القديم؛ بل معانيه كما قال الأستاذ الدكتور منصور فهمي في تقريظه رسائل الأحزان: «إنها من آخر طراز يأتي من أوروبا . . .» على أن الرافعي إلى ذلك ليس له حظٌ من لغة أجنبية، ومعرفته الفرنسية لا تجدي عليه اليوم أكثر مما كانت تجدي عليه يوم كان يتعلمها بالمدرسة وهو غلام!

وللجديد والقديم حديثٌ طويل في تاريخ الرافعي؛ فهو قد

---

(١) حدثني الأستاذ الرافعي بهذه العبارة، كما حكاها له الأستاذ أحمد لطفي السيد بك

وقف نفسه على الدفاع عن الدين والحفاظ على لغة القرآن . ذلك مذهب درج عليه وأعانته عليه نشأته وتربيته ؛ وهل يأخذ أحد عليه هذا المذهب أو ينكره ؟ . . فهو إنما « يحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين ، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء ، لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً . . . » وإنه بسبيل ذلك ليسأل : ما الجديدُ وما القديم ؟

لو أنهم يعنون بالجديد الابتداعَ والطرافة بمقدار ما يتطوّر الفكر ، أو الانشاء والابتكار على مقدار ما ينفعل الزمن في إحساسات أهله ، أو التنويعَ والخَلْق على قياس ما زيد في المعاني ويستجدّ من انفعالات النفس – لو أنهم يعنون بالجديد شيئاً من ذلك ، أو كل شيء من ذلك ، لوجدوا الرافعي مجدداً مع المجددين ؛ بل لما كان لشيء من هذا أن يُسمى جديداً ، لأنه حُكم الزمن وسنّة التطور من قديم . . أما أن يكون التجديد هو ابتداعَ لغةٍ ليست من اللغة ، وإنشاءَ دينٍ من شهوات النفس لا من وحي السماء ، والتزويرَ على التاريخ القديم باختراع تاريخ من الأحلام – أما أن يكون ذلك كذلك فما هو التجديد ، ولكنه التبديد الذي يوشك أن يتبعه الفناء . . . !

في النقد :

هذا هو الرافعي في موقفه من الجديد والقديم ؛ وما نحبّ أن ننتهي منه حتى نعرض لأسلوب الرافعي في النقد ؛ فما نعرفه ناقداً عنيفاً إلا حين يتناول الجديد والقديم ؛ وإذا نحن تدبرنا ما أسلفت من تلخيص رأيه في الجديد والقديم ، ومن مقدار حماسته في الذود عن الدين والعربيّة – عرفنا لماذا يؤثر الرافعي ذلك الأسلوب العنيف في مهاجمة خصومه والطعن عليهم ، إذ هو لا يَعتبر حينئذٍ إلا شيئاً واحداً ، هو الدفاع عن الدين وتراث السلفَ ، مؤمناً بأنك « لن تجد ذا دِخْلةٍ خبيثة لهذا الدين إلا وجدتَ له مثلَها في اللغة . . . » وأنت لا ترى الرافعي مرة يأخذ في أسباب النقد ليدفع كيداً يراد باللغة والدين ، إلا كما ترى البدويّ الثائر لعِرضه ، يطرح كل اعتبار من دون هذا الشرف المثلوم ؛ فمن ثمّ يكون في كلامه معنى الدم . . .

على أن الرافعي إلى شدته وعنفوانه ، ناقدٌ بصير بأساليب النقد ، مما عالج من مختلف فنون الأدب ، ووقف على أسرار العربية ؛ من ذلك لما كتب المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي مقالته عن الشعراء ونشرها في مجلة (سركيس) سنة ١٩٠٣ ، كتب المرحوم حافظ ابراهيم إلى الرافعي يقول : « . . . . قد وكلتُ أمر تأديبه إليك . . . ! »

وقد تعجب أشدّ العجب أن ترى الرافعي ينسى حين يجرّد قلمه للنقد كلّ اعتبار مما تقوم به الصِّلاتُ بين الناس ؛ ولكنه هو يعتذر من ذلك بقوله : « . . . إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة ، إذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه ، فقد تكون غداً فيمن لا نعرفه ؛ ونحن نردّ على هذا وعلى هذا بردٍّ سواء ؛ لا جهلُنا مَن نجهله يلطِّف منه ، ولا معرفتُنا من نعرفه تبالغ فيه . . . فان كان في أسلوبنا من الشدة ، أو العنف ، أو القول المؤلم ، أو التهكم ، فما ذلك أردنا ، ولكنا كالذي يصف الرجل الضالَّ ليمنع المهتديَ أن يضلّ ، فما به زَجْرُ الأول ، بل عظةُ الثاني . . . »

وقد خسر الرافعي كثيراً بالأمساك على مذهبه ذاك ، ووضع نفسه بحيث تنوشه من كل جانب سهامٌ مسدَّدة ، وألَّب عليه كثيراً من الخصوم ؛ ولكنك لن تسمع منه أبداً كلمة الندم ، وتراه على تربُّص دائم لكل « ذي دخلة للدين والعربية . . . » وهو ضربٌ من التضحية والشجاعة يدعو إلى الاعجاب

وكما ترى هذا الموقف للرافعي من دعاة الجديد في الأدب ، ترى له موقفاً قريباً منه من دعاة الجديد في الأخلاق والاجتماع ؛ فله آراء في الاختلاط ، والحجاب ، والتعليم ، والحرّية ، والحبّ والزواج ؛ تراها منبثّة في عديد الكتب والمقالات ؛ ولكن قليلاً من القراء من يستطيع أن يفهمها بروح مجردة من هوى ، ليعرف أيّ مذهبٍ في الاجتماع يدعو إليه الرافعي ؛ وله في هذه المقالات روحٌ رفافة ، وشعر ساحر ، وحجة قوية ؛ وهو فيها من أنصار المرأة عند من يعرف أين يكون انتصار المرأة ؛ ولستَ واجداً أحداً يردّ عليه رأيه في ذلك على قلة من تجد من أنصاره ؛ وقد جلستُ مرة إلى أديبٍ كبير ومربٍّ فاضل ، نداول الرأي في أدب الرافعي ومذهبه الاجتماعي ، فقال لي : « إنك لن تجد أحداً من أنصار الجديد رضي هذا المذهب ، ولكنك

لن تجد أحداً — أيضاً — يستطيع أن يصاول الرافعي في ميدانه بمثل حجته وقوة إقناعه . . . »

الرافعي والمرأة :

وإذ تكلمتُ عن مذهب الرافعي في الاجتماع ، فاني أقف قليلاً لأتحدث عن الرافعي والمرأة

وعجيبٌ أن يكون الرافعي صاحب « إعجاز القرآن ، وأسرار الاعجاز ، والبلاغة النبوية ، والانسانية العليا ، وسموّ الفقر ؛ والمحدّث ، المفسِّر ، المتصوِّف ، الذي يصف عن عصر النبوّة ، ومجالس الأئمة ، وكأنه يعيش في جوّهم وينقل عن حديثهم ؛ والذي تتصل روحه فيما يكتب من وراء القرون بروح الغزالي ، والحسن البصري ، وسعيد بن المسيّب ، وغيرهم وغيرهم من أئمة السلف — عجيب أن يكون هذا الرافعي هو صاحب « رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ، وسموّ الحب ، واليمامتان ، وسحر المرأة ، والطائشة ، وغيرها وغيرها ؛ فيصف عن المرأة والحب ، ويتحدث في ذلك حديث الرجل الذي عرف وذاق وجرّب ، ولبس المرأة ولبسته ، واستبدل قلباً بقلب ، وتقلب بين مجالس ومجالس ، وسمع (لا) بمعنى (نعم) ، و (إليكَ عني) في موضع (اتبعني يا حبيبي) ؛ والذي يترجم معنى النظرة والابتسامة وما بعدها . . . !

وإنك لتراه أحياناً يمزج بين حديث الحب وحديث الدين ، ويصل بين وَحْي السماء ووحي العيون الدُّعْج . . . فتسأل : أيّ رجل هو ؟

ولقد خالطته زماناً ، فاني لأعرفه عرفاني لنفسي ، فما وجدته في حاليْه إلا الرجلَ العفَّ الكريم ، ولكن له عالماً من وراء هذا العالم ، يصل اليه في سبحات فكرية لطيفة ، ليستوحيه من معاني المرأة ما لا سبيل إلى معرفته في دنيا الناس . ولو أنك أردت أن تسأله مرة : أيّ رجلٍ أنت ؟ لما جاءك الجواب إلا أنه رجلٌ وَحَسْب . . . !

وتسأل نفسك : هل عرف الرافعي الحب تخفّ بجناحيه إلى تلك العوالم غير المنظورة ينقل عنها فلسفة الجمال والمرأة والحب . . . ؟ فاستمع اليه يقرر : « إن النابغة في الأدب لا يتمّ تمامه إلا إذا أحبّ وعشق . . . ! » ثم ارجع إلى كتبه الثلاثة : رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ؛ لتعرف « أنها كانت عواطفَ ثارت وقتاً ما ، ليَحْدُث منها تاريخ ؛ وسكنتْ بعد ذلك ليحدث منها شعر وكتابة . . . »

ولكن ، من تكون تلك الفتّانة التي تيّمها وتيّمته زماناً ، « هي بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوّته وفلسفته . . . ؟ »

ذلك سرُّه هو ، أو سرُّها هي . . . !

وطنيته :

وللرافعي رأيٌ في معنى (الوطن الاسلامي) ، والوطنية الاسلامية ، تلمحه في كثير مما يكتب ، قوامه « أن يَظهر المسلمُ الأول بأخلاقه وفضائله في كل بقعةٍ من الدنيا مكانَ انسانِ هذه البقعة ، لا كما نرى اليوم ؛ فان كلّ أرض اسلامية يكاد لا يظهر فيها إلا انسانها التاريخيّ بجهله وخرافاته وما ورث من القدَم ، فهنا المسلمُ الفرعوني ، وفي ناحيةٍ المسلمُ الوثنيّ ، وفي بلدٍ المسلمُ المجوسيّ ، وفي جهةٍ المسلمُ المعطل . . . وما يريد الاسلام إلا نفسَ المسلم الانسانيّ . . . »

فلا يمنع أن يكونَ إلى جانب احساسه بمعنى (المصرية) احساس آخر بمعنى (الاسلامية) على أنها الوطن الأكبر ، كما لا يمنع الطنطاوي أن يكون إلى جانب حبه (طنطا) حبٌّ أعمق يشمل (مصر) كلها ؛ فاذا تحدث الرافعي عن الشام ، أو العراق ، أو بقعةٍ أخرى من الوطن الاسلاميّ ، فما يعني ذلك أنه قد خلع مصريته

والوطن عند المصريّ دارٌ تؤويه ، وحقلٌ يُغِلّ عليه ، وكلما زاد الانسان في معنى الانسانية انبسطت له رقعةُ الوطن ، فمن ثمّ كان الوطن فيما يرى الانسانُ المسلم هو كلّ أرض يخفق فيها لواءُ الاسلام ، وما مصر ، والعراق ، والشام ، والمغرب ، وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الاسلاميّ الأكبر ، كالأقاليم من الدولة ، والمناطق من الأقليم ، والشوارع من المنطقة ، والدُّور من الشارع ، والغرفتين من الدار ، حين يتدابر الأخوان وتدبّ بينهما الشحناء التي توشك أن تنسيهما أنهما أخوان لأب وأم . . . !

محمد سعيد العريان

(البقية في العدد القادم)

دراسات في الأدب الانكليزي

وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

نشأته وطفولته :

هو زعيم طائفة شعراء البحيرات وسيد شعراء الانكليز بعد شكسبير وملتن . ولد هذا الشاعر في السابع من شهر ابريل سنة ١٧٧٠ في كوكرموث في إقليم البحيرات من مقاطعة كبرلند . وهو من أسرة متوسطة في الجاه والثروة ، توفيت أمه وهو ابن ثماني سنين ، وكانت تؤمّل لو فسح لها في الأجل أن تشاهد الدور الذي سيمثله على مسرح الحياة ، لأنها لمحت فيه طفلاً حدة طبعه ورجاحة عقله يمتازانه عن بقية إخوته الخمسة . ولقد كان والداه مرشديه ، فهما اللذان تعهدا إنماء قواه العقلية ، وتوجيه مداركه الشعرية في أقوم السبل وأرشد الطرق ، وذلك بتلقينه أشعار القدماء والمحدثين ، وإلى ذلك يشير وردزورث في قصيدته « الفاتحة » The Brelude

كان موطنه مزداناً بالمناظر الشعرية الخلابة التي استهوت فؤاده ، ووجدت منفذاً إلى عقله فظهر أثرها في شعره

وبعيد وفاة والدته قصد مدرسة هوكشد حيث تلقى مبادئ العلوم والفنون . وكانت هذه المدرسة في محيط ريفي ساذج ، تكتنفها المناظر الطبيعية من جميع الأطراف ، مما أغوى شاعرنا وجعله يصرف أويقات فراغه في حضن الطبيعة . فتارة تلقاه يتمشى على شواطئ البحيرة ، وأخرى تجده يصطاد الأسماك ويداعب العصافير في أعشاشها ، أو يمرح بين التلال والشعاب يلاعب المدى ويعبث بالحلان . وكثيراً ما كان يصطحب الكتب الى تلك الحقول فيطالع منها مايستسيغه ويبعث في نفسه أملاً ورغبة في الحياة

في كمبردج :

توفي والده قبل أن يتم دروسه الابتدائية ، لكن أريحية عمه وليم كفلت له الالتحاق بكلية القديس يوحنا في جامعة كمبردج . وقد كره الشاعر هذه البيئة الجديدة ، ومجت نفسه هذه الحياة المقيدة في بدء الأمر ، إلا أنه عاد فألفها وتشبع بروح ذلك المكان بعد أن جالت في ذهنه صور الشعراء الذين قضوا قسما من حياتهم فيه . فقد أمده خياله الخصب بعالم روحي مطلق يعيش فيه ويستأنس بأهله لما لم تتح له الظروف أن يعيش طليقاً في الحياة . ولقد كان يتردد على أهله في بيرنث أو في هوكشد كلما سنحت له الفرص . وجرى له ذات يوم حادث غريب كان له أثر بعيد في حياته الأدبية ، إذ بينما كان يتسلق أحد التلال في هوكشد رأى رؤيا غريبة ظن أنه أوحى اليه فيها بالعمل العظيم المعد له . وقد ورد ذكر هذا الحادث باختصار في قصيدته (الفاتحة) ولا نعلم عنه أكثر من ذلك

رحلته الأولى :

اتفق شاعرنا وصديقاً له على القيام برحلة كبيرة في جبال الألب في إحدى فرص الصيف ، وكان ذلك على أثر انتشار الأخبار الأولية عن الثورة الفرنسية . استأجر الصديقان سفينة وأبحرا فيها إلى ميناء كاليس ونزلا في اليوم الذي حلف فيه لويس السادس عشر يمين الاخلاص للدستور الجديد . ومن ثم قصدا الجنوب إلى بحيرات إيطاليا وسويسرا ، فصرفا على شواطئها بعض الوقت الممتع ، ثم قطعا سمبلون ومن هناك كرا عائدين إلى الأوطان ، وفي طريقهما لقيا جيوش الثوار ناشرين لواء الحرية ومنتضين سيف العصيان على الملكيين . ولقد كان لهذه الرحلة أثر كبير في نفس وردزورث ، إذ أوحت إليه بروح شعرية وثابة ونفس متمردة تنزع إلى الحرية وتطلب التجديد ، فلا غرو إن انتصر للثوار الفرنسيين ورفع صوته معهم منادياً بسقوط باستيل الاستعباد

في فرنسا مرة ثانية :

ما كاد الشاعر يتسلم شهادته من كمبردج حتى عن له أن يزور فرنسا مرة ثانية ليتصل بالثوار الذين تشبعت نفسه بمبادئهم في رحلته الأولى . شرع في ذلك ماشياً سنة ١٧٩٠ ، فمر بباريس عش الثوار حيث قضى بضعة أيام يرصد في أثنائها حركات الثوار عن كثب ، ومن ثم رحل إلى أورليان فبلوا Blois حيث

تعرّف بابنــة جرّاح فرنسى اسمها أنيت ڤالون Annette vallon وأقام هناك برهة يتعلم عليها مبادئ الفرنسية . ولقد كانت هذه الفتاة على حظ وافر من الجمال مما استهوى شاعرنا وأوقعه فى الشرك ، فوضعت على أثر ذلك طفلة . رأى وردزورث أن يمحو إثمه هــذا بالزواج منها ، لكن الظروف لم تسمح له بالبقاء طويلاً فى أرض الثوّار لنفاد دراهمه وقطع عمه المساعدة المالية عنــه متوخياً بذلك إرغامه على الرجوع إلى بلاده لئلا يقع فى حبائل الملكيين . وإننا لنحمد الأقدار التى أوحت الى عمه ذلك ، إذ لولاه لقضى شاعرنا كما قضى غيره من عباقرة الرجال أنصار الثورة الفرنسية ، ولم يخلف لنا بعدُ تراثاً أدبياً يذكر

ولقد أثارت عليه فعلته هــذه حرباً عواناً فى الأوضاع الاجتماعية والأدبية فبعد أن كان متّصفاً بالفضيلة والكمال إلى حدّ القداسة أمسى اسمه مقروناً بالكفر والاثم خصوصاً بعد أن كشف لنا الدكتور هارپر عن هذه الصحيفة السوداء من حياته فى فرنسا فى كتابه « حياةوردزورث » . ولقد ظهر فى سنة ١٩٢٢ كتاب لاميل ليجوس اسمه « وليم وردزورث وأنيت ڤالون » يصف فيــه علاقة الشاعر بعشوقته المنكودة الحظ فى بلوا . ولم يُشر الشاعر إلى هذه الحادثة فى جميع أشــعاره أو كتاباته النثرية إلا ببعض الاشارة والتلميح فى قصيدته ڤودرا كور وجوليا Vaudracore & Julia

وفى أثناء إقامته فى بلوا اتّصل بفيلسوف وزعيم جمهورى كبير هو ميشيل بيوپاى ، فصرف معه طوال الليالى على ضفّة اللوار فى الجدل والبحث فى حرية الانسان السياسية والاجتماعية مما غذى عقيــدة شاعرنا الثورية وأذكى فى نفســه نار التمرد والخروج على المبادئ القديمة . ولقد سوّلت له نفسه الانخراط فى عداد الثّوار وحثّهم على مهاجمة معاقل الملكيين . بيد أنه لم ينفّذ رغبته هذه لنفاد دراهمه كما بينا فعاد إلى انكلترا وفى نفســه غصة وفى فؤاده حرقة لحبوط مسعاه وتلوث اسمه بذلك الفعل المنكر

شقيقته :

كان للشاعر شقيقة اسمها دوروثى لا تقل عنه فى توقد الذهن وحدّة الذكاء ونفاذ البصر ، وكثيراً ما كانت توجه نظره إلى أمور دقيقة ، وحوادث غريبة ، ومناظر بديعة فيتخذها مواضيع لقصائده . وقد أخذت على نفسها مرافقته فى غدواته وروحاته منذ صباها رغم معارضة أمها لها . فعند مالمحت فيــه وميض العبقرية وفيض الشاعرية هبت إلى مناصرته وتشجيعه على المضى فى سبيله . وكانت فى أكثر الأحيان تقرأ أشعاره وتنظر فيها قبيل إعدادها للنشر نظر الناقد الشفيق . وقد وجد فى أخته هذه كل العزاء والأنس بعيــد رجوعه من فرنسا كاسف البال كسير القلب لما جنته يداه من إثم

فى فورنست :

كانت أخته تقطن آنئذ فورنستُ فقصدها شاعرنا ، وهناك نظم عدة قصائد جمعها فى مؤلفين سماها « سير فى الليل » An Erening Walk « ومقطعات وصفيــة » Descriptive shetches .

ولقد أعجب كولردج بهما وتكهن لناظمهما بمستقبل باهر فى عالم الأدب رغم ما وُجّه اليه من نقد على صفحات « منثلى ريڤيو » و « ادنبرج ريڤيــو » . وفى تلك الأثناء خاض الشاعر المعامع السياسية فنادى بتحرير الزنوج ومعاضدة ثوّار الفرنسيين ، ويعالج فى بحث له يرد به على أحد أنصار الملكية مبادئ الحرية منادياً باتساع نطاق الديموقراطية على حين لم يكن فيه الرأى العام قابلاً للأخذ بهذه الآراء المبتسرة

قضى شاعرنا ردحاً من الزمن حائراً بين الكنيسة والأدب لضيق ذات يده . على أن المنية وافت صديقه الحميم ريسلى كالڤرت فأوصى هذا قبيل مماته لوردزورث بتركته البالغة نحو ٩٠٠ ج مما حداه إلى الانصراف بكليته إلى الأدب وقرض الشعر . ولقد كان لهذه المبرة أثر ظاهر فى حياته ، وقد أشار اليها فى « الفاتحة » وفى قصيدة موضوعها « إلى كالڤرتْ »

والظاهر أن شاعرنا لم يكن على وئام تام مع أقاربه . نستنتج هذا من رسالة بعثت بها شقيقته دوروثى إلى أحد أصدقائها تقول فيها : « إن أخى لناقم على أقاربه ، ولا يصفو قلبه إلا لأخويه يوحنا وخريستو »

(يتبع) ميرنس القرس

شهـــداء الإنسانية

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقـــدمة

شهداء العلم والاصلاح يزدحمون على باب الحياة ويسألون كل هالك : هل تحقق الخير الذى بذلوا حياتهم من أجله ؟ تتدركه الحيرة ! أيكذب كى يدخل على قلوبهم الاطمئنان ، أم يصدق فيفجعهم فى آمالهم ، أم يغريهم بالصبر الطويل كصبر الأحياء على الشر ، أم يغريهم بالعودة إن استطاعوا الى كفاح الحياة . وإذا استطاع أن يعزى الشهداء الموتى فماذا يقول للشهداء الأحياء :

الناظم

* * *

على باب الحيـاة أرى زِحاماً … من الأشباح عجَّ بهم وسالا

من العهد القديم إلى زمان … حديث قد مضوا زُمراً تَوالى

هُمُ ضَحَّوْا بهذا العيش كيما … يطيبَ العيش للأحياء حالا

إذا ما هالك ألفوه ظلوا … على شغف يعيدون السؤالا :

* * *

بربك هل مضى قدرٌ بِشَرّ … وخبث النفس هل أودى وزالا

وهل جفّت دموع الناس طرا … وهل بلغوا من العيش الكمالا

وذل الجوع هل قد زال عنهم … وكان سوادهم هَمَلاً مُذالا

وجهل يقتـدى بالناس بُهْماً … يُصَرِّفها يميناً أو شمالا

وهل غلبوا من الشهوات ما قد … عدا سلطانه فيهـم وغالا

أصار العيش من مِقَة وأمن … وكان العيش لؤماً واقتتالا

أعاد العيش عدلاً واعتدالا … وكان العيش مكراً واغتيالا

بربك لا يقـل إنّا غُبِنّا … وإن هزأ الحِمَامُ بنا وصالا

* * *

أيفجعهم بآمالٍ عِزاز … وما نال الردى منهـا منالا

يقول لهم : لقد رُمتم خيالا … وأسديتم وضحيتم ضلالا

أيسكت والسكوت له معان … أيخدعهم وما ألفوا احتيالا

أيغريهم بصبر مثـل صبر … لدى الأحياء دام لهم وطالا

أيأتى أن مَوْتى لم ينالوا … من العرفان ما يُرجَى نوالا

أيغريهم بِبَخْع النفس يأساً … إذا اسطاعوا عن الأخرى انتقالا

أيسخر أنهم - وهُمُ رفات - … أبوا للعيش سقماً واعتـلالا

فيا عيش الورى ماذا تراه … يقول لهم إذا ألقى مقالا

* * *

يقول لهم إذا اسْطعتُمْ فعودوا … دفاعاً للنوائب أو صـيالا

إذا الأحياء لم يرعوا عهوداً … لأحياء فلا تشكوا انخذالا

* * *

يقول لمعشر الأحياء منهم … ليقضوا العيش صبراً أو نزالا

أيفدح أن تقاسوا العيش نحساً … لِيُسعِد بعـدكم صحباً وآلا

وكم من نعمة لولا شـقاء … قديماً لم تكن إلا وبالا

فكم خَبَرَ الأوائلُ من شـقاء … فنلنا من شـقائهم نوالا

عبد الرحمن شكرى

مفتش بوزارة المعارف

خمـــر الرضا

للدكتور ابراهيم ناجى

ياحبيبى اسْقِنى الأمانِىّ واشْرَبْ … بُورِكَتْ خمرةُ الرضا وَهْىَ تُسكَبْ

بُورِكَ الكأسُ والحَبَابُ الذى يَرْ … قُصُ فى الكأسِ والشُّعاعُ المُذَهَّبْ

نَضَبَتْ رَحمـةُ الوجودِ جميعاً … وبِكَ الرحمةُ التى ليس تَنْضَبْ

وَلَئن ضاقَتِ السماء بِشَجْوى … فالسماء التى بِعَيْنَيْكَ أرْحَبْ

وشَقَائى وسادُ رأسى إذا نِمْـ … ـتُ وَمَرْسَاىَ حيثما أتَقَلَّبْ

كمْ تَمَنَّيْتُ والصُّدُورُ تُجافِيـ … ـنى وتَزْوَرُّ والوجوهُ تقطِّبْ

كم تمنيتُ صَدْرَكَ البَرَّ ، تَرْتا … حُ على خَفْقِهِ الطَّرِيدُ المُعَذَّبْ

هاتِ وَسِّدْنِىَ الحَنَانَ عليــه … جَسَدى مُتْعَبٌ وَرُوحِىَ مُتعَبْ

ابراهيم ناجى

أياصوفيا

بقلم أمجد الطرابلسي

أياصوفيا حان التفرق فاذكرى
عهود كرام فيك صلوا وسلموا
حافظ ابراهيم

«أياصوفيا» تذرى الدموعَ وتسفحُ وتُمسى على مُرِّ الأنين وتُصبحُ
تنكَّرَ أهلوها لها وأذاقها فوادحَهُ صرفُ الزمانِ المُفدَّحُ
وهانتْ على مَنْ كانَ بالأمسِ مُشفِقاً يُدافِعُ عنها الطامعين ويَنفحُ
فوا أسفا! ماذا أساءتْ وأذنبتْ وقد يُغفرُ الذنبُ العظيمُ المُبرِّحُ
أيَهجُرُها أبناؤها دونَ رحمةٍ وتُتركُ فى أيدى الأسى تتصوَّحُ
ألم تكُ مِحرابَ الخلافة أعصُراً يرفُّ عليها المجدُ والعِزُّ يَصْدَحُ
إذا سمعَ الناسُ الأذانَ رأيتَها تكادُ بأفواجِ المصلّينَ تَطْفحُ
وإن تُلِيَ الفُرقانُ فيها رأيتَهَا تمايَلُ من ترتيلِهِ وترنَّحُ
فأضحتْ خلاءً لا الحمائمُ خُشَّعٌ لديها، ولا الداعى المؤذِّنُ يُفصحُ
وعُطِّلَ فيها الدينُ فهىَ وجيمةٌ تضجُّ شكاةً والمنابرُ نُوَّحُ

* * *

«أتاتورك» لا يغرُرْكَ أنَّكَ حاكمٌ مُطاعٌ، تُردّى إنْ أردتَ وتصفح
رُوَيدَكَ إنَّ الدهرَ - مذْ كان - قُلَّبٌ يَعُودُ فيستقضى الذى كان يمنح
لعَمْرُكَ إنْ أمسيتَ ربّاً مُسوَّداً أتعلمُ ما يُبدِى الصَّباحُ ويفضح؟
إذا العينُ نامتْ عنْ أذى الدهرِ غفلةً تُفيقُ على الهوْلِ الفظيعِ وتُفتَحُ
وأنتَ الذى يدعونكَ اليومَ مُصلحاً فهلْ يَهدِمُ التاريخَ والمجدَ مصلح
لئنْ كان قُبحاً نبذُكَ العُرْبَ جانباً فنبذُكَ للدينِ المقدَّسُ أقبح
حُقودٌ على العُرْبِ الكِرامِ صَبَبْتَها على الدين، ما تنفكُّ تُورى وتقدَح
تبينَ فيها الغدرُ واللؤمُ والأذى «وكُلُّ إناء بالذى فيهِ ينضح»
تجرَّأتَ مغتراً على الدينِ أهوَجاً ولكنَّ دينَ اللهِ أسمى وأسمحُ
وشمَّرتَ للدينِ الحنيفِ مغالباً فوا عجباً! أنتَ الأجمُّ وتنطَحُ
وما ناصبَ الدينَ العداوةَ أحمقٌ منَ الناسِ إلا عادَ وهْوَ مُجرَّح
ولله عينٌ تكلأ الدينَ برَّةٌ وتدفعُ عنه كلَّ من جاء ينبح

* * *

بنَيتم على الإسلامِ شامخَ مُلككم فلستَ إذا هدَّمتَهُ اليومَ تُفلحُ
وإنَّ أيادِى العُربِ فيكم كثيرةٌ وما ضرَّها أنْ تُنكِروها وتقدحُوا
ولولا تهاوِيلُ الخلافةِ لم يكنْ «لعثمانَ» فى ضخمِ الممالكِ مطمحُ
فإنْ تهجُرُوا الدِّينَ المقدَّسَ فارجعُوا سوائمَ ترعَى فى المُرُوجِ وتَسْرَحُ

* * *

«أتاتورك» حاذرْ منْ بنِى الغربِ وثبةً وإنْ غرَّدُوا بالسِّلمِ يوماً ولوَّحُوا
فحبُّهُمُ حُبُّ الذئابِ لنعجةٍ وسِلمُهُمُ البرَّاقُ سِلمٌ مُسلَّحُ
فصمتَ عُرَى الشرقِ العزيزِ بنزوةٍ من الحُمقِ ما تنفكُّ تنزُو وتجمحُ
وقطَّعتَ أسبابَ القرابةِ عامداً وهذا الذى يُرضى عِداكَ ويُفرِحُ
أأنتَ إذا خُنتَ القرابةَ واجدٌ من الأهلِ من يحنو عليكَ وينصحُ
ووالله لا يُبدِى لكَ الغربُ حُرمةً ولوْ رُحتَ فى أذيالِهِ تتمسَّحُ
يقولُ لكَ الغربُ المُدِلُّ ببابِهِ وقد جئتَ تستجدِى رضاهُ وتمدَحُ
مكانَكَ يا شرقىُّ وارجعْ بذِلَّةٍ فمنْ ذا رأى الشرقىَّ للعزِّ يصلحُ
ومهما سما الشرقىُّ فالشرقُ نعجةٌ تُسمَّنُ للغربِ النَّهومِ وتُذبَحُ
فلا تلتمسْ عطفاً من الغربِ صاغراً ذليلاً فما يحنُو القوىُّ ويسمَحُ
ولا تعبُدِ الغربىَّ جهلاً فإنما ستكسبُ منه كلَّ ذلٍّ وتربح
ألستَ تراهُ رابضاً متربِّصاً يوَدُّ لوَ انَّ الصيدَ يبدو ويسنحُ

دمشق أمجد الطرابلسى

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٦ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

غزوات نيتشه

الغزوة الأولى

حمل نيتشه فى الغزوة الأولى على الكاتب الألمانى « داڤيد ستراوس » وعلى كتابه الذى أخرجه فى درس الدين والمدنية ، والايمان قديمه وحديثه . وقد يحتدم فى نقده للجزء الثانى من الكتاب حيث يعلن « ستراوس » المثل الأعلى الذى يجده خير ما وجده لأبناء الأجيال القادمة . ونيتشه يصب سوط نقده على الرجل الذى لم يعلُ ولم يسفل ، بل وقف وسطاً قانعاً بما آل اليه ، يأخذ من كل علم بحزمة ، ويقنع من كل فن بضمة ، ويعتقد بأنه بلغ الدرجة القصوى من الكمال الانسانى

لا يؤمن « ستراوس » بجنة المسيح ، ولا يرتاح لوجود الله ، وإنما يعمل على أن يوحى الى أنصاره أن العالم ما هو إلا رحى ميكانيكية لاتهدأ عن دورانها ، وما على الانسان إلا أن يسلم من الوقوع تحت ثفالها . وهو فى الأخلاق كذلك ، فلا يبشر بمذهب خطر ، ولا يجرؤ على أن يطلب إلى الفرد أن يستخدم مواهبه وان يكون كما تريد نفسه فى الوجود . وإنما يقول هـذه الجملة بعد تثبته من اختلاف الناس فى حظوظهم ومواهبهم ، « لاتنس أبداً أيها الانسان أن الآخرين هم أناس مثلك ، لهم نفس حاجاتك وذات مآربك »

يحسب كل ما يجاوز حد الفهم الوسط قبيحاً ، لأن العبقرية تتجلى فى التوسط لا فى التطرف . فالنشيد التاسع « لبيتهوفن » لا يقع موقع الرضا إلا عند من يرون الغريب عبقرية ، والخروج عن المألوف والوزن سمواً . وقد ظن بنفسه أنه قهر « شوبنهاور » ببرهانه الركيك الذى رآه « إذا كان الوجود قبيحاً ، فالعقل الذى أوجده هو قبيح أيضاً ، فالمتشائم إذن هو مفكر قبيح ، والوجود هو حسن وجميل . . . »

إن ستراوس فى نظر نيتشه هو مثال العقل المتوسط الذى يدعى معرفة كل شئ ، ويريد أن يفرض سلطته على الوجود . هو مفكر هياب لا يبلغ بفكره إلا منتصف الطريق ، ولا يستطيع أن يقصد نهايته . إنه متفائل يناق عينيه عن الآلام الضرورية للبشر خوفاً ورهبة . وهو مفكر يدعو الناس إلى حياة قانعة خانعة ، وبدلاً من أن يكرم رجال العبقرية يعمل على مما كستهم لأنهم — بزعمه — خالفوا نظامه ومثله الأعلى باختراقهم حدود النبوغ المتوسط

***

الغزوة الثانية :

وتصدى نيتشه فى تأملاته الثانيـة للتاريخ ، وهو لا يجابه رجلاً معلوماً أو طائفة مشهورة ، وإنما ينازل مذهباً حديثاً يهم بأن يشيع ويطبع الحضارة العصرية بطابعه ، فالتاريخ هو خير راع للحضارة وناقل لها ما ظل يعمل على خدمة الحياة ، ويحث الناس على نشدان الحياة السامية ، فالتاريخ الموقوف على نشر المآثر يمثل للانسان آثار الأقدمين الرائعة ويبعث فى روحه الأمل

نجـــوى

أنت لحن الفؤاد فى الخفقان … يا نجىّ الضمير فى كل آن
رافق القلب ذكرك العذب كالظا … ء رفيقاً لخاطر الظمآن
إن هذى الحياة ـ وهى شؤون ـ … ليس فيها سواك لى من شان
أنا من أجلك احتملت حياتى … حين ظلّلت فى الحياة مكانى
ربَّ ليل مضى عليك هنيئاً … بتُّ فيه مؤرق الأشجان
طيفك العابث الكذوب يغنيـ … ـنى فأحيى ليلى سمير الأمانى
وأرى عطفك البعيد قريباً … فيفيض السرور فى وجدانى
ثم يحنو علىّ طيفك حتى … تتهادى مواثق الرضوان
ويحلّ الوصال لثماً وضماً … وحديثاً باللحظ أو باللسان
ثم أصحو فلا أراك حيالى … فيثور الدفين من أشجانى
أيها الظالم الجميل ترفق … بأسير معذب ولهان

بغداد — ابن عباس

اللهب والعزم المتأجج لأ كمال معنى هـذه الآثار ، ويعمل على رفع مثل الانسانية الأعلى ناقضاً من قلبه التلهي بحب الحاضر والاستسلام للذاته . أما التاريخ التقليـدى الذى يوحى للانسان احترام الأشياء الفانية ، وحب الآثار الماضية ، فهو خير حقير يحمل أصحابه على الرضا بالحاضر المقوت ، يسكرهم بذلك الماضى الذهبى البعيد ويسكب فى وجودهم القاتم المستكين مخدراً شعرياً يمهّم على الركود . وهنالك التاريخ الناقد الحاكم ، يعرض الماضى كله على محكمة العقل ويبحث فيه ثم ينفيه ، لأن كل ما كان من حقه أن يزول . — ان مثل هذا التاريخ هو سلاح محمود عند من أثقلت ظهورهم أعباء الماضى الثقيل ، وهم يريدون أن يطرحوها عنهم ويعشوا قُدُماً إلى ما خطت لهم الحياة

ولقد يستحيل التاريخ إلى قوة غاشمة سيئة حين ينفصل فى طريقه عن الحياة ، وحين يود أن يفرض مذهباً خاصاً بعيداً عن مذاهبها ، إنه يصبح رسول موت لا رسول حياة . ينشئ من الانسان مجموعة محشوة علوماً ومعارف . ويقتل فيه القوة التى تسوقه إلى العمل . . . إنه مجموعة أتربة لاحظ فيها لسطر من سطور العمل . صاحبها ضعفت شخصيته ، ونشأ فى تفكيره عالة على غيره ، وتعلم أن التاريخ يجب أن يتلقنه تلقيناً ، وألا يضعه بنفسه . على أن المؤرخ الحقيقى الذى ينبغى لمثله أن يسطر التاريخ هو من يقف تجاه المسألة التى يدرسها وقفة الخلى ، ويعمل دائباً على تشييد بناية الحاضر . رجل التجارب والسمو هو الذى يسطر التاريخ

وللتاريخ وجهة ثانية رائعة يستخلصها نيتشه : هى أن التاريخ يكرّم من التفاؤل ما كان منفوفاً بالكدر والخطر . ويحترم الميول الفقلّة ويمجد الظفر . يعتقد المؤرخ أنه يرى فى الحركة الانسانية أثراً لا أعلى من أى عقل سام منحدره . يجهد العقل ليدرك أنى بدأت هذه الحركة وأين يجب أن تنتهى ؟ والانسان لم يكن عظيماً إلا حين كان يشن الغارة على القدر ويعلن الحرب على القضاء الأهوج ، ولـكنه يفعل ذلك دون أن يخرج من نفسه

ليس التاريخ الحقيقى بذلك التاريخ الذى يأتى على كل شىء وإنما هو تاريخ أبناء العبقرية ، وسيأتى عصر تتبدل فيه صورة هذه الحركات التى ألف التاريخ تسجيلها . وسترسم هذه الصورة بصورة أدنى إلى الحقيقة ، فلا يكتب التاريخ بعمومه وخصوصه ؛ وإنما يقصر فيه على رجال العبقرية الذين أثروا فى العالم ؛ هم لا يأتون ويتعاقبون حسب شريعة تاريخية ، ولـكنهم يعيشون وراء الزمان ! يمثل وجودهم التصـل التماسك معبراً ترابطت أجزاؤه واستمكنت عقده فوق الأمواج العاصفة . ولنعم هذا التاريخ الذى يرسم هذه الصورة ويخرج هذا المثل ! وهذه هى جمهورية العباقرة التى تحدث عنها « شوبنهاور » . عبقرى ينادى عبقرياً فى أثناء العصور واهتضام الأجيال . ووظيفة التاريخ أن يجمع شتاتهم ، ويدنى بعضهم من بعض ، وأن يهيئ — فى كل مهلة — ولادة جديدة لعبقرى جديد . إذ ليست غاية الانسانية من سيرها ذلك الغرض الذى تزحف اليه وإنما غايتها تتمثل فى النماذج الكاملة التى تخرجها وتنشئها فى الوجود

* * *

الفترة الثالثة :

ولم يقف الأمر عند تهديم العمارة القديمة وتعاليمها المخطرة . فهو يقصد إلى تشييد عمارة المستقبل على دعائم جديدة ، فتحرى عن عباقرة أحياء يستطيعون ان يذهبوا بالشباب إلى هذه العمارة وإلى هدف جديد ، ينزع عنهم هـذا التفاؤل المخدر ويعرضهم أمام أنفسهم مجردين ، وسعى إلى أن يرى له معلمين يساعدونه على كشف نفسه ويعرفونه بنفسه ؛ من أين نشأت وإلى أين تذهب ؟

وقع — أو شاءت المصادفات — أن يقع نيتشه مصادفة على كتاب شوبنهاور « العالم إرادة وتمثيل » وما كان نيتشه ليقدر ان هذا الكتاب سيقلب كل أطوار حياته ، ويترك ثورة مستمرة فى فى نفسه ، ثم تشتعل هذه الثورة وتزيدها الأيام ضراماً ، فلا تهدأ إلا بعد أن تأكل نفسها ، وتمد ألسنة شواظها إلى نفسها فتهدأ الثورة بثورتها على ذاتها ... فكان أول ماشغله من هذا الكتاب الجديد شخصية صاحبه التجلية فى كل حرف من حروفه ؛ وهو الذى يقول : « أنا من قراء شوبنهاور ، ممن يدركون أنهم سيتلون شوبنهاور من فاتحته إلى خاتمته ، وسيصغون إلى كل حرف تهمسه شفتاه . إن ثقتى به ثقة عمياء مازادها كر الأيام إلا ثباتاً »

(يتبع) خليل هنداوى



من أساطير الإغريق

القرية الظالمة

للأستاذ دريني خشبة

ذهبا يدلجان فى هدأة الليل ، ويضربان فى ظلام الوادى ، ويتحدث أحدهما إلى الآخر حديث الآلهة ؛ وكلما نال منهما الجهد ، جلسا يتسامران ، أو ينصت الشيخ ذو اللحية البيضاء المرتعشة ، إلى السحر الذى تنفثه قيثارة الفتى اليافع

ـ «حسبك يا بنى ، فلقد كادت موسيقاك تبطل عمل العاصفة»

ـ «وفيم تريد أن تستيقظ العاصفة يا أبتاه ؟»

ـ «أريد أن تستيقظ العاصفة لأريك عجباً هذه الليلة من طباع الناس . أترى إلى هذه القرية النائمة فى أكناف الجبل ؟»

ـ «أين يا أبى ؟»

ـ «أنظر جيداً»

ـ «الظلام دامس ، ويكاد الحلك يختلط بسواد الصخر فلا أرى شيئاً . . .»

ـ «أنظر فى الجهة التى تشير إليها يدى»

وأشار الشيخ بيده فانبعثت منها شعاعة من نور شديد ، كشفت القرية للفتى

ـ «آه . هذه هى . عمش خفيف أصابنى الليلة يا أبتاه !»

وكان الفتى حلو الدعابة رقيق النكتة ، ثرثاراً ، فقال له الشيخ يحذره :

ـ «إذا كنا عند القرية فلا تبدأ حديثاً ، ولا تخاطبنى إلا أن أخاطبك ، وإياك أن تأتى بإشارة تسقط هيبتنا فى أعين القوم ، فانهم لؤماء سفهاء ، وقد تفسد علينا ثرثرتك ما جئنا من أجله الليلة إلى هذه القرية . . .»

«نسيتُ القفل يا أبتاه ! !»

ـ «أى قفل ؟»

ـ «الذى أقفل به فمى فما يتحرك بِبِنت شفة»

ـ «يا خبيث . . : أصمت»

***

وأشار الشيخ بيده إلى السماء فاربدّت وتكلحت وأورى برقها وقرقع رعدها ، وانصبت ميازيبها بماء منهمر . وانطلقا إلى القرية . . .

ووقفا عند منزل فخم ضخم ذى شرفات ، فقال الشيخ :

ـ «تشبث يا بنىّ بأحياد الحائط حتى تكون عند النافذة ، فانظر ماذا ترى»

وفعل الفتى ، ونزل ، وقال للشيخ :

ـ «أبتاه ! نسوة عاريات يرقصن ، وندامى وخمر ، و . . . موسيقى . . . وفتيان وفتيات . . . و . . . .»

ـ «وماذا يا صفيرى العزيز ؟»

ـ «ودعارة وعهر يا أبتاه . . . . لماذا جئنا هنا ؟ لماذا جئنا هنا ؟ . . .»

ـ «قلت لك جئنا لأريك عجباً هذه الليلة من طباع الناس ، هلمّ إلى باب هذا المنزل»

وطرقا الباب ، فبرز لهما فتىّ غرانق وقال : «ماذا ؟ شحاذان قذران !» فقال الشيخ :

ـ «على رسلك يا بنى . أنا رجل شيخ غريب ، وهذا ابنى ، وقد دهمتنا العاصفة فلجأنا إليكم نرجو أن تضمنا غرفة صغيرة إلى الصباح ، ونطمع أن نتبلغ لديكم بلقمات . . .»

- « غرفة ولقمات ؟ هاها . . . اذهبا اذهبا . . . لصوص ! هذه حيل قطاع الطريق والصفاحين بلوناها من قبل »

ثم قذف بمصراع الباب في وجهيهما . فنظر الشيخ إلى ولده وقال : « أرأيت ؟ سر إلى هذا البيت القريب »

وقال لابنه : « هلم إلى النافذة فانظر . . . »

وتسلق الفتى وحملق قليلاً ، ثم قفز وقال : « أبتاه ! أناس يخزنون الذهب في خوابٍ عظيمة ويختمون عليها بالرصاص المذاب ؛ من أين لهم هذا الذهب كله يا أبي ؟ . . » فقال الشيخ : « هم لصوص يا بني ، وإن كانوا لا يقطعون طريقاً ، ولا يسطون على دار ؛ ولكنهم يمتصون دم الفقير والمعتر ، ويصهرونه ذهباً ويكنزونه هكذا ؟ ! إنهم أصحاب هذه الضياع والبساتين ! هلم إلى بابهم ... ... »

وطرقا الباب ، وسألا طعاماً ، ومبيت ليلة ، فقالت لهم العجوز صاحبة الدار :

- « إن هذا العام عام شــدة ، ولم تبق لنا المجاعة على زرع ولا ضرع ، ماذا عندنا لنعطيكم ؟ هيكل زيوس قريب من هنا ناما فيه ، وكهنته أسخياء كرماء ، وعندهم في كل آونة خمر ... سيطعمونكما ويسقونكما ! وربما قدموا لكل منكما غادة ! فهم فساق عرابيد ... إقصدا إليهم ... اذهبا ... »

وقذفت بالباب في وجهيهما ... ...

قال الشيخ : « أرأيت يا بني ؟ » فقال الفتى مداعباً : « نحن نستحق أضعاف هــذا الهوان ؛ ما لنا وللناس ؟ ! » ؛ فقطب الرجل جبينه وقال : « ما لنا وللناس ؟ اذن ما نحن في هذه الدنيا يابني ؟ ولكن ليس الآن ما أعددت لك من عبرة هذه الليلة ؛ سر بنا إلى ذلك القصر العتيق »

فلما كانا عنده ، تطلع الفتى فرأى صخباً كثيراً ما زال يتمشى ، والموائد حافلة بالأشربات والأشواب ، وبكل ما لذ وطاب . والندامى البيض كالنجوم رافلات ، ورافلون ، في وشي وأفواف . وكأن الفتى استطير من العجب ، فقال للشيخ : « كل الناس يا أبتاه هانئون هذه الليلة المقرورة إلا نحن ! ! الجميع يأخذ في نشوة ولذة ونحن نضرب في وحل وتنشق من غيظ ؟ ! »

قال أبوه : « ألم أقل لك ألا تبدأ حديثاً حتى أبدأك ؟ هلم إلى الباب » وقرعا الباب فبرز لهما شابٌ مفتول العضل كأنه هرقل . فلما سألاه حاجتهما ، قادهما إلى البهو الواسع حيث القوم فيما هم فيه من متاع

قال الشاب المفتول : « اليكم أيها الاخوان لصين من لصوص الدجاج عاثا كثيراً في قريتنا هذه ، ولولا طول الحذر ما ذقتم الليلة رجل دجاجة . . . . . . إنهما يطلبان مبيتاً وعشاءً ، ولا أدري لِمَ لَمْ يقصدا الى هيكل الأب زيوس حيث المبيت الوثير والعشاء الكثير ؟ ! وحيث أشياء أخرى . . . . . . »

وقهقه السمار وتكبكبوا حول الغريبين ، ثم أخذوا معهما في ألوان غير محتشمة من المزاح الثقيل . هذا ينتف شعرات من ذقن الشيخ ، وذلك يرفع ذيل الفتى مما وراءه ، وهذه تعانق الشيخ وتقبّله وتقدم له كأساً من الخمر ، وتلك تركب الفتى « زَقْفُونَه ! » (1) . . . . . .

ولما فاضت الكأس بالشيخ والفتى ، نظر أحدهما إلى الآخر نظرات ، ثم غابا عن أنظار الجماعة ، كأنما تحولا الى هواء . . . ؟ ! فَشُدِه القوم ، وأوجَسوا خيفة

***

لم يبرح الرجل وابنه يتنقلان في شوارع القرية الوحلة من بيت إلى بيت ، وكلما طلبا المبيت والعشاء استهزئ بهما وطردا شر طردة وأخسها ، حتى ضجر الفتى وبرم بحكمة والده في هذه الرحلة المضنية في ذلك البلد البخيل . . . فقال له : « اذهب أنت فسأنتظرك على هذه الصخرة الناتئة في حَيْد الجبل ، وسأتسلى بموسيقاي حتى تعود » فقال الشيخ : « وحكمتي التي أردتك أن تراها بعينيك ؟ هلم ، هلم . . . أترى إلى ذلك الكوخ ؟ لندلج نحوه وليكن آخر مطافنا »

وكانت في الكوخ كوة صغيرة ينبثق منها نور خافت . فلما نظر الفتى تمتم يقول : « أبتاه ! امرأة متهدمة وشيخ محطم ! يا لبؤس الحياة ، ويا لشظف العيش ! لماذا أثرت العاصفة يا أبي ؟ إن الماء ينز عليهما ويبلل فراشهما . . . »

(1) لم نعرف غير هــذه اللفظة التامة للتعبير عن الركوب على ظهر الانسان مع لف الساقين والذراعين حول الوسط والعنق وقد استعملها أبو العلاء في رسالة الغفران نقلناها عنه

ـ « سترى أن هذا الكوخ هو وحده الذى يبق »

ـ « ما ذا تعنى يا أبى ؟ هل تهدم القرية ؟ »

ـ « صه ! هلم فاطرق باب الكوخ . »

* * *

ـ « قم يا فيلمون . إن بالباب طارقاً »

ـ « نامى يا بوسيز ! إنه البَرَد ترجم به العاصفة »

ـ « لا . ليس برداً . إسمع ! أناس ينادون . قد تكون بهم حاجة »

ونهض فيلمون متهالكاً على نفسه ففتح الباب . وما كاد الشيخ يذكر حاجته حتى هش صاحب الكوخ وبش ، وتلق الرجل وابنه أحسن لقاء

ـ « مرحباً مرحباً ... أنتما فى حاجة إلى دفء . بوسيز . انهضى ياامرأة فأوقدى ناراً . أنا أعرف أن الحطب مبلل ، ولكن حاولى . . . مرحباً يا كرام معذرة ، فنحن نستعين على الحياة هنا بالصبر . بوسيز ، هاتى قربة النبيذ أولاً . ليس فيها الا صبابة ! لا بأس ! سيبارك زيوس للضيفين فيها . . . هاتى شيئاً من المشمش الجاف يا امرأة ! . . . »

وتأتى بوسيز بقربة النبيذ ، وما يكون فيها إلا ثمالة ، فيتناولها الشيخ ذو اللحية البيضاء ، فيتمتم فيها بكلمات فتمتلئ نبيذاً من خير ما عصر باخوس ! وبعد أن يروى منها هو وابنه ، يدفع بها إلى صاحب الكوخ ممتلئة كأن لم تمتد إليها فم ! فيتولى الرجل دهش عظيم ويقول : « بحق زيوس إلا ما أخبرتني أيها الصفىّ الصالح من أنت ؟ » فيقول الشيخ : « أنا أيها العزيز رجل نقلة وأسفار وهذا ابنى الموسيق البارع . أتطرب للموسيق ؟ »

ويهتز الرجل ، ويوقع الفتى على قيثارته لحناً كأنه لسان العاصفة بما فيها من سنابرق وهزيم رعد ومكاء ريح وتنقير مطر ، ثم هو مع ذلك لحن مشرق متألق يأسر اللب ولا يستأذن على القلب . . . وطرب فيلمون ، ورقصت جوانح بوسيز ، وأحضرت طبقاً به قليل من المشمش الجاف فقدمته للفتى ، ناسية أن تقدمه الى الشيخ ، وهذا من أثر الموسيق على أعصابها ، فقدمه هذا الى أبيه فى أدب واحترام .. وما كادت اليد البيضاء الناعمة تمس الفاكهة حتى عادت إليها النضارة ، وتأرجت عنها أنفاس الحديقة ، وتضاعفت فى الطبق حتى ملأته . فأكل الشيخ ، وأكل ابنه ، وأكل فيلمون وزوجه ، وهما لا يصدقان ما يريان !

وظلا يقدمان للضيفين كل ما استطاعاه من خبز وأدم ، فكان القليل يزداد والمشفوف يتضاعف . وكانت لديهما إوزة عجفاء حاولا أن يجريا عليها التجربة فهما بذبحها ليصنعا منها شواء يقدمانه للضيفين ، ليريا ماذا يكون من أمرها . ولكن الأوزة فزعت فزعاً شديداً ، وانطلقت فى ناحية الشيخ تستجير به كأنها تكلمه . فابتسم ، وربت على ريشها الناعم النظيف ، وأجارها من سكين فيلمون

وكان نسيم السَّحر قد أخذ يهب فى الأفق الشرق ، فقال الشيخ :

ـ « أيها العزيز فيلمون . أيتها التقية الكريمة بوسيز ، من إلهكما ! »

ـ « إلهنا زيوس تبارك فى علياء الأولب ؟ »

ـ « أو يسركما أن يكون معكما الآن ؟ »

ـ « معنا ؟ هو دائماً معنا ! »

ـ « أجل . هو دائماً مع عباده المخلصين . ولكن ، أيسركما أن تكونا الآن فى حضرته يحدثكما وتحدثانه ؟ »

فيصيح فيلمون :

ـ « أنت هو زيوس . تقدّست . تقدست »

ويسجد الرجل وزوجه ، وما تفتأ تأخذها رعدة شديدة

ـ « أجل . أنا زيوس . أتيت أبتلى هذه القرية . وهذا ولدى هرمز . انهضا . والآن . ستزلزل الأرض زلزالها فلا تنزعجا . . . »

ووقف زيوس ، وأشار بيده إشارة خفيفة إلى الشرق ، ثم إلى الغرب ، ثم إلى الجنوب ، ثم إلى الشمال ؟ ؟ ثم نظر إلى فوق وتمتم بكلمات ، وجلس

وما كاد يفعل حتى رقصت الأرض ، وسمع كأن الجبل القريب يندك ، وكأن الصواعق تنقض على المنازل فتقوضها ، وتنقلب القرية إلى جحيم ملتهب ، وكلما أطل فيلمون أو أطلت امرأته من الكوة سرت فيهما رجفة أروع من رجفة الزلزال ، فيطمئنهما زيوس

ـ « الكوخ يا إلهى ! أنا رجل فقير ! »

ـ « مال كوخك يافيلمون ! »

ـ « إذا انهدم عشت فى العراء ! »

ـ « لا عليك ! فلن تقوض الزلازل إلا قصور العتاة ؟ »

وأشرقت الشمس ، فنهض الآله الأكبر ، ونهض الجميع معه . وما كاد فيلمون يفتح باب كوخه الحقير حتى أخذه العجب وارتد على عقبيه مذعورا :

ـ « مولاى ! لمن هذا القصر المشيد ؟ »

ـ « هو لك يا فيلمون ، أمرت الآلهة فبنى لك فى ساعة السحر جزاء كرمكما . هلما نشهد غرفاته »

وانطلق الجميع يتنقلون فى غرفات القصر وردهاته ، وكلما مر فيلمون وزوجه بتمثال إله سجدا له وأخبتا ، حتى إذا كانوا فى أكبر ردهات القصر ، وقف زيوس وقال : « فيلمون ! هذا هيكلى ! وقد جعلتك كاهنى الأكبر ، فتمن الآن علىّ ، فسأجيبك إلى كل ما تطلب »

فتبسم فيلمون وقال : « مولاى ! الشباب يا مولاى ! ليعد الشباب إلىّ وإلى زوجى بوسيز ، ولنعش طويلا ، فإذا جاء وعدك فلنمت فى يوم واحد فى ساعة واحدة ! » وسجد يقبل الأرض بين قدمى الآله الأكبر !

فقال زيوس : « انهض يا فيلمون فطلبك مجاب ، وستعيشان راغدين ! »

***

وسلم الآلهان وغابا من الأنظار ، وخرج فيلمون وزوجه ليريا إلى القرية ، فلم يشهدا شيئاً غير بحيرة تمج أمواجها ، وجزيرة كبيرة خضراء فى وسطها قصرهما المنيف ! فآمنا بزيوس وسبّحا له !

وعاشا طويلا ، وماتا فى يوم واحد وساعة واحدة ، ونبتت دوحتان عظيمتان من أشجار السرو أمام باب القصر تخلدان ذكراهما فى العصور ...

دريني خشبة



المؤتمر المصري الثالث للطلبة المصريين بانجلترا

أقام الطلبة المصريون في انجلترا مؤتمرهم الثالث من مساء يوم الأربعاء ١٠ يوليه إلى يوم الاثنين ١٥ منه ، فحاضر في اليوم الأول اللازم حسن بكير في البوليس المصري والأمن العام : حالهما وما يجب أن يكونا عليه ؛ وفي يوم الخميس ألقت الآنسة أسماء فهمي محاضرة عن (علاقة علم النفس بالتربية ومقاييس الذكاء) ، وكذلك ألقى الأستاذ عبد العزيز أمين عبد المجيد محاضرة عن (عيوب النظام المدرسي الحالي بمصر ووسائل اصلاحه) ؛ وفي يوم الجمعة تكلم الأستاذ يحيى نامق عن (حركات الشباب المصري وكيف يجب أن تتجه) ، والأستاذ حسن محمد الشعراني عن (رقي الصناعة في مصر) ، ثم تحدثت الآنسة حنينه خوري عن (الحبشة وعاداتها وعلاقاتها بمصر) ؛ وفي يوم السبت تكلم الأستاذ ابراهيم حسن الوجي عن (فضل الاسلام في رفع منزلة المرأة) ؛ وفي يوم الأحد تكلم الأستاذ سليمان أحمد حزين عن (مشكلتي السكان والدفاع القومي ومكانتهما من سياستنا التعليمية) ، والأستاذ يحيى عبد السلام الملايلي عن (علاقة الطلبة المصريين بانجلترا وكيف يجب أن تكون)

وفي يوم الاثنين انعقد المؤتمر بشكل جمعية عمومية لمراجعة النتائج التي وصل اليها في المحاضرات السابقة ولمناقشة شؤون المؤتمر الرابع المقبل وانتخاب اللجنة المدة لادارته.

بين الرصافي والريحاني

نشرنا في عدد مضى ما رواه الريحاني عن الرصافي في كتابه الجديد (قلب العراق) وانتظرنا كلمة الأستاذ الرصافي في هذه الرواية . وقد قرأنا أخيراً في جريدة الاستقلال البغدادية كتاباً من الأستاذ الرصافي ينكر فيه كل ما عزاه الريحاني اليه انكاراً يؤيد تعليقنا على هذا الخبر إذ ذاك ، وهذا كتاب الرصافي بنصه :

حضرة الأستاذ الفاضل صاحب جريدة الاستقلال الغراء

أرجو نشر الكلمة التالية في جريدتكم ولكم الفضل والشكر :

أطلعني بعض معارفي على ما رواه الريحاني عني في كتابه قلب العراق فعجبت منه واستغربته كل الاستغراب . لقد اجتمعت بالريحاني عدة مرات في أزمان مختلفة ، ومجالس مؤتلفة وغير مؤتلفة ، تجاذبنا فيها أطراف الأحاديث من كل نوع ، ولا أتذكرها اليوم لمرور الزمان ولاختلال ذاكرتي بالنسيان ، فأنا من هذه الناحية لا أستطيع أن أناقشه في صحة تلك الأقوال التي أسندها إليّ ورواها عني . ولكنني الآن أستطيع أن أنفي نفياً باتاً صحة كثير مما رواه في كتابه المذكور بدليل أن في تلك الأقوال ما لو قاله اليوم أحد غيري لأنكرته عليه أشد الانكار . إذن فكيف أقول للريحاني ما أنكره لو قاله غيري ؟ وفي الأخير أقول : إن كان كل ما يرويه الريحاني في كتبه من هذا القبيل فويل للحقيقة منه ، وويل له من الحقيقة !

معروف الرصافي

معهد شرقي في برلين

من أنباء برلين الأخيرة أن الحكومة الألمانية قررت إنشاء معهد جديد يسمى « المعهد الشرقي » يلحق بجامعة برلين ويعنى بدراسة اللغات الشرقية ومسائل الشرق وحضاراته . وسيدمج في هذا المعهد الجديد ، معهد اللغات الشرقية القديم Seminar für Orient. Sprachen الذي كان ملحقاً بجامعة برلين ، ومعهد اللغات السامية والعلوم الاسلامية ، والمعهد الصيني ، والمعهد الهندي الألماني . أما المعهد الياباني المخصص لدراسة المسائل والحضارة اليابانية ، فسيبقى مستقلاً كما هو الآن نظراً لمهمته الخاصة

وفي هذا النبأ ما يلفت النظر ، لأن الحكومة الألمانية الحالية وهي الحكومة الهتلرية قد اضطهدت حركة الاستشراق ، أعني المباحث الشرقية والاسلامية ، اضطهاداً شديداً ، لأن معظم أقطاب المباحث الشرقية والاسلامية من اليهود ؛ وقد طاردت الحكومة

الهتلرية العلماء اليهود أشد مطاردة وشردتهم من معاهدهم ، وركدت بذلك حركة الاستشراق فى ألمانيا ؛ وكانت هذه الحركة زاهرة بألمانيا قبل الحرب لأنها كانت يومئذ تجيش بالمطامع الاستعمارية فى الشرق وتشجع المباحث الشرقية والاسلامية وتغذيها بالمال والبعوث ؛ ثم ضعفت هذه الحركة بعد الحرب ، وفترت همم العلماء المستشرقين لتخلى الحكومة عنهم وقصورها عن إمدادهم بالمال اللازم ؛ فهل نفهم من إنشاء « المعهد الشرقى » الجديد أن الحكومة الهتلرية تزمع العودة إلى تشجيع المباحث الشرقية ، وأن لهذه الخطوة علاقة بمطامعها السياسية والاقتصادية فيما وراء البحار ؟ هذا ومن جهة أخرى فالمعروف أن الحكومة الهتلرية تقيم سياستها على فكرة الجنس ، وأنها تنادى بانحطاط الأجناس الشرقية وعدم كفايتها « لانشاء الحضارات » وتعتبرها فرائس مشروعة لاستعمار الجنس الآرى إلى آخر ما هنالك من مبادئ ومزاعم جديدة يعمل الهتلريون على بثها وتدعيمها ؛ ولذا فانا نجد ما يدعو إلى التأمل فى اهتمام الحكومة الهتلرية بانشاء « المعهد الشرقى »

عميد أطباء فرنسا

من أنباء فرنسا أن الدكتور الكسندر جنيو عميد الأطباء الفرنسيين سناً قد توفى فى سن الثالثة بعد المائة ؛ وأنه لبث محتفظاً بصفاء ذهنه وقوة حواسه حتى اللحظة الأخيرة . وقد كان مولد هذا الطبيب المعمر فى سنة ١٨٣٢ ؛ ودرس الطب ، ونال أجازته سنة ١٨٥٧ ؛ ثم نال شهادة العالمية الطبية سنة ١٨٦٩ ، واشتهر بنبوغه فى الجراحة ؛ وانتخب عضواً فى أكادمية الطب ، ثم رئيساً لها ، وانتخب أيضاً رئيساً لجمعية الجراحين ؛ وله مؤلفات قيمة فى فن الجراحة مازالت حجة فى بابها . وقد كان الدكتور جنيو طوال حياته شهيراً ذائع الصيت لا كطبيب نابغ فقط ، ولكن كرجل اجتماع جم الفكاهة ، وقد اشتهر بالأخص برسالة ألفها فى أواخر حياته عن « طول الحياة » ، وما يجب على الانسان أن يتبعه من نظم التغذية والرياضة إذا أراد أن يعيش مائة سنة ، وخلاصة نصحه فى ذلك أنه يجب الامتناع عن الافراط فى أى شىء ، فى العمل أو فى الراحة أو فى الطعام أو فى الشراب ؛ ويجب الامتناع بالأخص عن التدخين والخمر وغيرهما من المواد والعناصر المهلكة التى تبثها المدنية الحديثة

المرأة والاستكشاف

نظمت أخيراً فى انكلترا بعثة استكشافية جديدة لارتياد « الأرض الخضراء » (جرينلاند) فى منطقة المتجمد الشمالى ؛ ورحلت البعثة فوق السفينة القطبية الشهيرة « كوست » وهى سفينة السير أرنست شاكلتون الذى اشتهر باكتشافاته فى تلك المناطق ، وعهد برئاسة البعثة الجديدة إلى الأستاذ واجر ؛ وبين أعضائها عدد من العلماء القطبيين المعروفين بين انكليز وداغاركيين ومنهم الأستاذ كورتولد الذى اشتهر بمخاطراته فى الجزيرة الخضراء وقضى بها وحده شتاء كاملاً فوق الجليد فى سنة ١٩٣١ . ومما يلفت النظر أن هذه البعثة القطبية ترافقها أربع سيدات هن زوجات أربعة من الأعضاء ، وسيقضين الشتاء مع البعثة فى الجليد ، ويحتملن نفس المشاق التى يحتملها باقى الأعضاء . وقد سافرت البعثة من ثغر ابردين فى اسكتلندا فى أوائل شهر يوليه صوب البحار القطبية ، ويتولى تسيير السفينة بحارة من النرويجيين الذين عرفوا بخبرتهم فى هذه البحار ، واحتمالهم لهذه الأجواء

وعلى ذكر مخاطرة المرأة فى ارتياد المجاهل والوهاد الخطرة فى سبيل الغايات الاستكشافية نذكر أن امرأة بمفردها هى الدكتورة مارى آكلى أرملة المثال الشهير كارل آكلى تزمع السفر بمفردها إلى بعض مناطق أفريقية الوسطى فى رودسيا وفى سوالى لاند وزولولاند لدرس حياة الحيوان فى تلك الأنحاء ، ولتعرف رسوم القبائل وعاداتها الوثنية . وقد سبق أن قامت الدكتورة آكلى بمثل هذه الدراسات فى بعض أنحاء أفريقية الجنوبية ، وقامت أيضاً برحلات شاقة فى الجبال الكندية بأمريكا ، ولها اكتشافات معروفة فى تلك الأنحاء استحقت من أجلها عدة أوسمة وتقديرات علمية

خليل بك مطران وفرقة التمثيل الحكومية

أصدرت وزارة المعارف قراراً بتعيين الشاعر الكبير الأستاذ خليل بك مطران مديراً للفرقة التمثيلية التى اعتزمت الحكومة انشاءها تنفيذاً لاقتراح لجنة ترقية المسرح المصرى بمرتب قدره خمسون جنيهاً فى الشهر ؛ وهو تعيين معناه الجد فى انهاض هذا الفن الذى عبثت به الأهواء والفوضى فخرجت به عن سبيل النهضة العامة



قواعد التحديث

من فنون مصطلح الحديث

نشره « مكتب النشر العربي بدمشق »

للأستاذ الأمير شكيب أرسلان

اطلعت فى مجلة « الرسالة » المصرية على كلام للأخ الأستاذ العلامة محمد بك كرد على ينتقد فيه كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » للمرحوم العلامة الأستاذ الشيخ جمال القاسمى بأنه كتاب قد جمع جماً ولم يأت صاحبه فيه إلا برأى واحد وهو ترجيح قول الجلال الدوانى على قول الشهاب الخفاجى فى عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت فى مقام الترغيب فى الفضائل . وقال : إن طريقة التأليف فى عهد الارتقاء العلمى هى أن يأتى كلام المؤلف أكثر من شواهده ، وانه لما ضعفت ملكة التأليف أصبحت الكتب عبارة عن نسخ أقوال من سلف ، وربما كان الشيخ جمال القاسمى آخر من جرى على هذه الطريقة وهى بسط آراء غيره ؟ وأنه قد حدثت فى التأليف طريقة جديدة اليوم وهى أن المؤلف فى فن يقتصر على لباب ما قرأ فيه ، ويدعم أقواله بشواهد من كتب القدماء أو المحدثين بأسلوب سهل سائغ خال من الخطابيات والسجع ؟

فالأستاذ كرد على ينتقد هذا التأليف رأساً من جهة أنه ليس على طريقة التأليف العصرية التى هى بزعمه الاكتفاء بالاشارة إلى ما كتبه القدماء أو التلخيص لأقوالهم بدون التزام النقل إلا ما جاء فى سبيل التأييد والدعم . ثم إنه لم يكتف بنقد الكتاب نفسه بل انتقد ناشره بأنه قدم له أربع مقدمات، ثلاث لبعض المعاصرين ورابعة للمؤلف ، وأن هذه المقدمات استغرقت أكثر من عشرين صفحة وما خرج الكلام فى بعضها عن الدعاية والتمجيد ؟ وكأن الأستاذ كرد على يريد انتقاد أخيه هذا فى المقدمة التى من قلمى والتى أذكر فيها ما أعرفه عن الشيخ جمال القاسمى رحمه الله . وبعبارة أخرى قد ثقل على أخينا الأستاذ ما صدرنا به كتاب « قواعد التحديث » من مناقب مؤلفه ، ولقد كنت أتمنى ألا يكون الأستاذ كرد على جعل من هذا موضعاً لنقده . وأنا أتمنى الآن أنا أكون أسأت فهم كلامه . فأما من جهة مؤلف هذا الكتاب الشيخ جمال القاسمى فانه من مفاخر الشام بالاتفاق ، وممن سار ذكر فضائلهم فى الآفاق ، وليس محمد بك كرد على بالذى يجهل ذلك أو يقدر أن يمارى فيه ، وانى لجدّ مستغرب منه ضيق صدره بثنائى على رجل لا يتمارى اثنان فى دمشق الشام فى كونه من أفذاذ هذا العصر ومن العلماء الذين تحتج بمثلهم دمشق فى كل مقام مباهاة

فأنا لم أكتب عن الشيخ جمال القاسمى إلا ما أعلمه وأعتقده ، وإذا كان أخونا كرد على يسمى ذلك « تمجيداً » فان التمجيد فى محله لا يكون موضع نقد ، فان لم تمجّد الانسان مثل الشيخ جمال القاسمى فى علمه واحاطته ، وقوة حجته ، ودماثة خلقه ، ورقة طبعه ؛ وسائر ما امتاز به من خلال الخير الكثيرة ، فيكون هو المقصر ، وهو الذى يستحق النقد . ما كنت أحبّ أن يغمز الأخ كرد على بىّ فى مسألة كهذه ، ولا أعلم لماذا فعل ذلك ؟ وأما من جهة التأليف نفسه فان الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا قد أعطاه حقه فى إحدى المقدمات الأربع التى أشار اليها حضرة الأخ ، وقد ذكر كل ما يلزم من بيان مزايا الكتاب وقال انه لا يعرف كتاباً مثله فى موضوعه وسيلة ومقصداً ومبدأ وغاية ، ونظن أن السيد رشيد رضا هو من يضع الهناء موضع النقب ، ولا يكون مخالفاً للواقع إذا قلت إننى أنا والأخ كرد على لانقدر أن نتكلم فى علم الحديث إذا كان السيد رشيد رضا قد تلقف فيه كرة البحث

وبعد هذا فلست أرى ما يراه الأخ من أن القاسمى جمع جماً ،

وإن الجمع فى التأليف هو خطة عهد التأخر ، بل قد وجد الجمع فى كل من عهدى التقدم والتأخر . وفى أوربا اليوم كتب كثيرة لا يزيد فيها أصحابها على الجمع ، وهم يتركون فيها الحكم لأرباب النظر ، وقد يوجد الانسان فى ظروف زمانية أو مكانية تمنعه من التصريح برأيه ومن الترجيح والتجريح لاختلاف أذواق من يخاطبهم ، فيكون الجمع حينئذ هو أمثل الطرق ، ويكون كل قارئ قادراً أن يستقى من هذا الجمع ما يستعذبه . فالشيخ جمال القاسمى كان يعلم ما فى عصره ومصره من طبقات مختلفة ومنازع متباينة ، وكان هدفه ألا يصادم مشرباً خاصاً ولا يحكم لمذهب على مذهب ، بل يجمعها كلها تحت راية الهدى النبوى ، وينظم كلام ابن تيمية مثلاً إلى كلام الشعرانى والشيخ الأكبر بحيث يكون كل من الطبقتين السلفية والصوفية واجدين فى هذا الكتاب طلبتهم . وقد نسى أخونا الأستاذ كرد على محنة الشيخ جمال القاسمى عام ١٣١٣ عندما اتهم بالاجتهاد هو والمرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار وآخرين من رفاقهما واعتقلوا من أجل ذلك وأهينوا ، فأصبح مثل الشيخ جمال وقد عضته الصراحة بأنيابها يتجنب الخوض فيما يؤدى به إلى نكبة ، ويجد الاكتفاء بعرض الآراء أسلم ، وربما أعلم أيضاً ، لأن مثل هذه الآراء لا ينتهى الخلاف فيها ، ولا تزال كل طائفة تجادل فى كونها على حق إلى يوم القيامة . ففى بعض المواقف يكون السكوت أفصح من البيان ، وأبعد عن مثار الشبهات لاسيما عند ما يكون العالم الخبير بامور عصره وشؤون قطره واثقاً بأن المصلحة هى فى جمع الكلمة ، وأن جمع الكلمة تحت راية الهدى النبوى لا يتأتى بالترجيح والتجريح والقول بأن هذا فاسد وهذا صحيح إلا فى المسائل التى لا خلاف فيها بين العلماء والتى إنما يختلف فيها العوام . . .

فكتاب « قواعد التحديث » لو كان يؤتى من هذه الجهة لما أطراه مثل صاحب المنار هذا الاطراء كله وهو فى علم الحديث الجبل الذى لا يطاول والبحر الذى لا يساجل ، كما أنه يعلم من طرق التأليف القديمة والمتوسطة والعصرية ما لا يقدر أن ينكره العلامة الكرد على . ثم إن هناك غمزاً بالسجع ، وليس الأخ كرد على وحده الذى بدأ بهذا الغمز ، بل كان أحد الأصحاب أطلعنى على كتاب للدكتور زكى مبارك لمحت فيه كلاماً يشبه أن يكون استصغاراً للسجع أو استكباراً لأتيانه ؛ وهذا باب جديد عجيب إذا أردنا الآن أن ندخل فيه يطول بنا الأمر . فنكتفى بالقول إن السجع وجد فى الجاهلية وجاءت منه أمثلة لأفصح فصحائها ، ثم جاء فى القرآن الكريم ، بل القرآن الكريم كله سجع وهو أبلغ الكلام العربى وغير العربى ، وجاء فى كلام الصحابة والمخضرمين ثم فى الطبقة التى تليهم ، ثم فى التى تليهم ثم فى التى تليهم إلى يومنا هذا . ولم نعلم أحداً عاب السجع من حيث هو ، وإنما يعاب السجع بالنسبة إلى المقام الذى يستعمله فيه الكاتب ، أى إنه لما كان السجع تقييداً بفواصل كما هو الشعر تقييد بقواف فلم يكن السجع مستحسناً فى المواطن التى يجب أن ينطلق فيها عقال القلم لكمال تأدية المعانى على وجهها . وأما فى المواطن التى هى أقرب إلى الشعر منها إلى المباحث العلميـة الصرفة ، فليس السجع بالذى يعد سبة على العربية ، بل هو من محاسن هذه اللغة . وإن كان يجب حذفه من هذه اللغة من أجل كونه طريقة قديمة ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية فان هذا يؤدى بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً ، فان الشعر هو من قبيل السجع طريقة قديمة وزينة كلام تتوخى فيها المحاسن اللفظية كما تتوخى المحاسن المعنوية ويراعى فيه الوزن والقافية وهو من قبيل الموسيقى . والموسيقى هى أيضاً قديمة والطبيعة البشرية تألفها بل تحتاج إليها بل تهتف بها . والشعر ضرب من الموسيقى ، فهو إذن من مقتضيات الطبيعة البشرية . والسجع وإن لم يكن مقيداً بكل تقييد الشعر فهو مقيد أيضا بقيود لها مواقع فى النفوس ، وهى فى محلها مطربة مستعذبة ولا غبار عليها ، ولا يقدر أحد أن يقول إننى أنا مفرط فى هذا المذهب لأنه ليس لأحد من الكلام المرسل أكثر مما لى ، ولكنى لا أزال أرى السجع حلية الكلام العربى عندما يكون فى محله ، وذلك مثل مقدمات الكتب ومثل الخطب التى تلقى على الجماهير . وإن العرب قد اصطلحوا على السجع فى أسماء الكتب ولم يخطئوا فى ذلك لأن الكلام المسجع أعلق فى الذهن من غيره . وعسى كلامى هذا يكون مقبولاً عند أخى الأستاذ الكرد على ، ولا تتأثر به آصرة الأخاء القديم الذى بيننا والذى لا يمكن أن يطرأ عليه ما يوهنه مهما كان السبب ثقيلاً . فكيف إذا كان خفيفاً . وإن أدرى فقد يكون أراد أن يداعبنى ، ولا تكون هذه أول مداعبة بيننا

جنيف — شكيب أرسلان